بسم الله الرحمن الرحيم

أَمْـــــراضُ القُـــلُـوبِ

أ. أناهيد السميري

بسم الله الرّحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكن سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- ✓ منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- ✓ هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- ✓ الكمال لله –عزَّ وجلَّ–، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الأول

عناصر اللقاء

من عناصر اللقاء:

- القلب مدار الصلاح والفلاح.
- حالات القلب من حيث الصحة والسقم.
- أنواع القلوب:
  - القلب الحي وعلاماته.
  - القلب الميت وعلاماته.
  - القلب السقيم "المريض" وعلاماته.
- العلاج للقلب المريض.
- هدي الأنبياء والصالحين في الاستعانة.
- منافذ الإصابة بأمراض القلب.

السلام عليكم ورحمة الله

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمده-سبحانه وتعالى-الذي عَرَفه أولياؤه بنعوت جلاله، واستنارت قلوبهم بمعرفة كمال صفاته، وتعرَّف إليهم-سبحانه- بما أسداه إليهم من إنعامه وإفضاله، عباد علِموا أنَّ الله هو الواحد الأحد الربّ الصمد الذي لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، بل هو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به أحد من خلقه لا نحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه، هو الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء والباطن الذي ليس دونه شيء والظاهر الذي ليس فوقه شيء، الحيّ القيّوم السميع الذي يَسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنُّن الحاجات؛ فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تُغلطه المسائل، ولا يَتبرَّم بإلحاح الملحِّين في سؤالهم، ولا يمنعه حركة قلوب عباده من أن يعطيهم وهم مُلحُّون، البصير الذي يرى هذه الحركات، كما يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصَّماء في الليلة الظلماء حيث كانت من سهْلِه أو جباله، وأعظم من هذا وأَلْطَف رؤيته لتقلُّب قلب عبده ومشاهدته لاختلاف أحواله.

فسُبحان الملك العظيم الربّ الكريم، إن أقبل عبده إليه، تلقَّاه، وإن أعرض العبد لجهله، لم يَكِلْه إلى عدوِّه ولم يدعه، بل هو أرحم الراحمين، أرحم به من الوالدة بولدها الرفيقة به، فإن تاب العبد، فهو أَفْرَح بتوبته من الفاقِد لراحلته حين يجدها، وإن أصرَّ على الإعراض ولم يتعرَّض لأسباب الرحمة فهو يُكرِّر عليه تربيته، فإن أصرَّ إلَّا الشَّقاء فقد استحقَّ الهلاك، ولا يهلك على الله إلَّا الشَّقي الهالك؛ لعظيم رحمته وسِعة إفضاله-سبحانه وتعالى-.

نشهد بأنَّه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، نشهد أنّه تقدَّس عن الأضداد والأنداد والشركاء، نشهد أنه لا مانع لما أعطى ولا مُعطي لما منع، ولا رادّ لحُكمِه ولا معقِّب لأمره.

ونشهد أنَّ نبيَّه-صلى الله عليه وسلم-الذي أرسله رحمة للعالمين، وجعل أفعاله منارًا للسالكين، وافترض على العباد طاعته ومحبَّته وتعظيمه وتوقيره والقيام بحقوقه، ونشهد أنه-صلى الله عليه وسلم-بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حقَّ جهاده، وأقام الدِّين، وتركنا على البيضاء الواضحة البيِّنة للسالكين، بيَّن لنا الدِّين خير بيان، وأظهر لنا طريقه خير ظهور، ووصف لنا حركات القلب وسكناته وأخطاره وما يتعرَّض له، وهو-صلى الله عليه وسلم- الذي قال: ((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ))[1].

و**هذه المضغة العجيبة هي سبب شرف الإنسان وفضيلته** التي بها فاق جُملة من أصناف الخلق، فإنَّ استعداد الإنسان لمعرفة الله-عزَّ وجلَّ-هذا الاستعداد للمعرفة والعلم الموجود في القلب هو الذي يُشرِّف الإنسان، وهو الذي فاق به جُملة المخلوقات.

(1) "صحيح البخاري" (كِتَاب الْإِيمَانِ/بَاب فَضْلِ مَنْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ/52)، ومسلم (كِتَاب الْمُسَاقَاةِ/ بَاب أَخْذِ الْحَلَالِ وَتَرْكِ الشُّبُهَاتِ/1599).

وهذه المعرفة في الدنيا جمال القلب وكماله، وفي الآخرة عِدَّته وذخره. فإذا امتلأ القلب عِلمًا عن الله، تقرَّب إلى الله وسعى إليه، تجده بنور الله يستضيء، والجوارح تكون مثل الخدم يستخدمها القلب، ويستعملها استعمال المالك للعبد، ويستعملها استعمال الراعي للرعية، ويستعملها استعمال الصانع للآلة.

فمدار صلاحنا: **(قلوبنا)**، فالقلب هو **المقبول** عند الله إذا سَلِم من غير الله، وهو **المحجوب** عن الله إذا صار مُستغرِقًا بغير الله.

فهذا القلب هو المخاطَب وهو المعاتَب وهو الذي يَسعُد بالقرب من الله، وهو الذي يحصل له الفلاح إذا تزَكَّى، وهو الذي يخيب ويشقى إذا دنَّسه وداسه العبد ودسَّه، إنّ تدْسِية العبد لقلبه كأنَّه يضعه تحت قدمه؛ حين يمنع عنه التزكية كأنَّ هذا يُدَسِّيه فيدُسُّه فيدوسُهُ.

فقلوبنا هي مدار صلاحنا وفلاحنا، إذ كل إناء ينضح بما فيه، وكل قلب يتحرَّك بما فيه، هذا القلب العظيم إذا عرفته وتقلُّباته، فقد عرفت نفسك؛ وإذا عرفت نفسك فقد بدأت في معرفة ربك، والعكس بالعكس.

وكن حذرًا أن يُحال بينك وبين نفسك، وأن يُحال بينك وبين قلبك.

فكيف يحول الله بين المرء وبين قلبه؟! -أمر عظيم خطير-

- يحول الله بين الإنسان وبين قلبه بأن يمنعه من مشاهدته ومن مراقبته ومن معرفة صفاته.
- ومن معرفة كيف يتقلَّب بين أصبعين من أصابع الرحمن.
- ومن رؤية أنه يهوى، فلما يهوى يهوي به الهوى إلى أسفل السافلين.
- يحول بين المرء وقلبه فينخفض إلى أودية الشياطين، لا يرى حين يهوي ولا يراه كيف يرتفع ويرتقي.

فالذي **لا يعرف** قلبه **لا يعرف** ربه ومن ثمَّ حكم على نفسه أنه أهلٌ أن يُحال بينه وبين نفسه فإن الله يحول بين المرء وقلبه.

وما أعظمها من آية والله-عز وجل-يقول: {وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ}[1].

فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه هذا أصل الدين، ومعرفة القلب وأعماله ستجده جانبًا عظيمًا من جوانب الإيمان، فإنَّ للقلب أعمال عظيمة، وكثير من المستقيمين غفلوا عن قلوبهم وما أدركوا خطرها، ولذلك التزكية إنما تُجدي وتُعطي نتيجة إذا كانت بعد رؤية آفات القلوب.

وآفات القلوب أصعب من آفات الأبدان؛ لأنه كما هو معلوم أن غاية مرض البدن أن يُفضي بصاحبه إلى الموت أمَّا مرض القلب فيُفضي بصاحبه إلى الشَّقاء الأبدي. والطريق للشفاء من هذه الآفات العِلم عن الله-سبحانه وتعالى-، ولذلك وصف اللهُ كتابه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ}[2] شفاء لأمراض الصدور.

(1) [سورة الحشر: 19]
(2) [سورة يونس: 57]

إذًا لابد أن نعتني غاية العناية بقلوبنا ولتكن هي بداية رحلتنا إلى ربنا، فإنّ الله-سبحانه وتعالى-أَمَر بتطهير القلب وتنقيته وتزكيته، فليس بِدعًا من القول أن نعتني بتزكية قلوبنا، بل جعل الله-سبحانه وتعالى-من غايات رسالة الرسول تزكية الناس، فلمَّا أخبر عن بعثه في الأُميين رسولًا منهم، **أخبر عن أفعال الرسول**:

1. الفعل الأول: {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ}
2. الفعل الثاني: {وَيُزَكِّيهِمْ} *هذا مدار نقاشنا*
3. الفعل الثالث: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}[1].

إذًا الرسول أُرسل بما معه من كتاب **يتلو** عليهم آياته، وآيات هذا الكتاب **تُزَكِّي** بها النفوس. ولذلك في قوله تعالى في سورة المدثر: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}[2] جمهور المفسِّرين أن الثياب هنا المقصود بها القلب.

فإذًا التزكية ليست أمرًا ثانويًا إنما أَمَر الله بتطهير القلوب، والنبي-صلى الله عليه وسلم-أخبر عن أثر القلب في حياة الإنسان، وكيف أنّ القلب هو الموجِّه المخطِّط وأن الاعضاء والجوارح هي المنفِّذة ((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ)) فإذًا حين نبحث في هذا الباب لابدَّ أن يكون أمام عينينا خطورته وأهميَّته، فسلامة القلب وخُلوصه من كل ما يعوقه عن الله سبب للسعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}[3].

الآن كثير من المشكلات بين الناس-وخاصة بين طلبة العِلم-سببها أمراض تعتري القلوب، ولا توجد حقائق شرعية ولا سبب لما يفعلون إلا أنك تقول: يوجد مرض، يوجد غلّ وحسد وكبر واحتقار وسوء ظن، وهذه ليس لها حلّ إلا أن تُعالَج القلوب؛ لأننا-يا قوم-في سفر إلى ربّنا، فلو ضللنا الطريق ما الذي يردُّنا ؟! {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}[4].

إنَّ من عرف أنه يسير إلى ربِّه بقلبه، عرف أهميَّة إصلاح قلبه، وعرف خطر الأمراض على القلب؛ لأنك حين تُصاب في يدك التي تكتب بها بمرض فهذا المرض على حسب شِدَّته يعوق يدك من القيام بما يجب، وإذا أصابك مرض في قدمك التي تسير بها فإن هذا المرض على حسب شدَّته يعوقك عن السير على قدمك، فإذا مرض قلبك أكيد أنه سيعوقك عن السير إلى ربك! فالله المستعان وعليه التُّكلان.

فالواجب علينا ألَّا نترك قلوبنا تطير إلى أودية الضلال والأوبة فتعود لنا بالأمراض، بل علينا أن نعتني بقلوبنا ونحافظ عليها ومن هذه المحافظة معرفتنا بالأمراض التي يمكن أن تصيب القلوب.

نبدأ بالكلام عن أحوال القلوب

(1) [سورة الجمعة: 2]
(2) [سورة المدثر: 4]
(3) [سورة الشعراء: 88-89]
(4) [سورة النحل: 9]

القلب له حالات يمُر بها ويتَّصِف بها، وحالاته تعتمد على وصف الصحة أو حالاته تعتمد على وصف الحياة، أي قلبٌ صحيح أو قلبٌ حي.

1. القلب الحي

هو القلب الصحيح، وهو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى به.

والسليم هو السالم الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له، السلامة من أي شيء؟

نقول هذا القلب سلِم من أن يكون لغير الله، سلِم من أن يكون فيه شرك، فلا يكون في هذا القلب السليم أحد غير الله فيكون كله لله إرادةً ومحبَّة وتوكلًا وإنابة وإخباتًا وخشيةً ورجاءً، فإرادته لله ومحبَّته لله وتوكُّله على الله وإنابته إلى الله خلَّص عمله لله، وهذا إذا أحبَّ، أحبَّ في الله، وإن أبغضَ، أبغض أعداء الله، وإن أعطى، أعطى لله، وإن منعَ، منع لله.

قال بعض السلف: ما من فعلة وإن صَغُرت إلا ويُنشر لها ديوانان (لِمَ؟ وكيف؟) أي لما فعلْت؟ وكيف فعلْت؟

فهذا القلب السليم له أقوال وله أفعال:

فأقوال القلب هي العقائد، في مقابل أن أقوال اللسان هي الخبر عمَّا في القلب.

أعمال القلب هي حركاته: الإرادة، المحبَّة، الكراهية، البغض، الرجاء، الخوف، الإنابة، الإخبات، الخشية ثم يتبعها أفعال الجوارح.

فالآن كل قول للقلب لِمَ وكيف؟ وكل فعل للقلب لِمَ وكيف؟

كيف أفعل هذا كله؟ يجب ألَّا أتقدّم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا بعقيدة ولا بقول ولا بعمل ولا بطريقة إنما كما اتفقنا (لِمَ؟ وكيف؟) لم فعلته؟ من أجل من؟ تريد رضا من؟ وكيف فعلته؟ هل فعلته كما أمرك الله–عز وجل–أم خلاف ما أمرك؟

- **إذًا السؤال الأول (لِمَ؟)** هذا سؤال عن الباعث الداعي، هل تريد الدنيا؟ هل تريد المدح؟ هل تخاف الذم؟ هل أنت تستجلب محبوب عاجل أم تدفع شيء تخاف منه الآن؟ أم أن باعثك على القيام بهذا العمل هو العبودية وأنت تطلب التودُّد إلى الله بهذا العمل، وتريد أن تتقرَّب إلى الله، تريد أن يحبك الله وتأخذ الوسائل إلى رضاه؟ يعني هل أنت تفعل هذا الفعل لمولاك أم لحظك وهواك؟ {وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ}[1].
- **أمَّا سؤال (كيف؟)** فهذا سؤال عن المتابعة، هل فعلت فعلك على ما شرع النبي–**صلى الله عليه وسلم**–أم أنك اخترعته؟

(1) [سورة يونس: 30]

إذًا سلامة القلب ستكون بأن تفعل الفعل لله فليس لك إرادة تُعارض الإخلاص، وليس عندك هوى يُعارض الاتباع، هذه هي حقيقة سلامة القلب، فإذا بحثت عن القلب السليم فقد زَكَّاه صاحبه فليس له إرادة تبعثه على القيام بالعمل تُعارض الإخلاص، وليس عنده هوى يُعارض الاتباع.

فلا إرادة تعارض الإخلاص و**لا** هوى يُعارض الاتِّباع وهذا هو **القلب السليم**

وضدّه مباشرة:

2. القلب الميت

هذا القلب الميِّت–نعوذ بالله من موت قلوبنا–لا حياة فيه.

وصفات القلب الميِّت:

أ. أول صفة للقلب الميِّت الذي لا حياة فيه: أنه لا يعرف الله.

ب. ومن ثمَّ لا يعبده بأمره وبما يُحب الله؛ هذا واقف مع شهواته ولذَّاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه.

ج. لا يفكر وكل ما عنده الفوز بشهوته وحظه ليرضى، فإذا لم يفز بشهوته وحظَّه سخط؛ فهذا أكيد أنه عبد لغير الله حبًا وخوفًا ورجاءً ورضًا وسخطًا وتعظيمًا وذلًا.

د. هذا القلب الميِّت إذا أحبَّ أحبَّ لهواه، وإذا أبغضَ أبغضَ لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منعَ منعَ لهواه. فهوى قلب هذا الإنسان مُقدَّم عنده على الله وأحب إليه من رضى مولاه.

فمعناه أنك لو وصفت **شكل القلب الميِّت** ستقول:

الهوى أمامه.

والشهوة تقوده.

والجهل يسُوقه.

والغفلة هي مركبه.

فنعوذ بالله من هذه القلوب التي إمامها الهوى، والشهوةُ والجهلُ والغفلةُ هي التي تقودهم، فترى تفكير هؤلاء مغمور في أغراض الدنيا، فيهم سَكرة الهوى، تجد قلوبهم مخمورة بحب العاجلة، سبحان الله!

ينادَون إلى الله وإلى الدار الآخرة فلا يستجيبون للناصح! فالدنيا هي التي تُسخطه وتُرضيه، والهوى يَصمّه ويُعميه. وهذا لا يضر فقط نفسه! إنما مُخالطة صاحب هذا القلب سُقم ومعاشرته سُم، ومجالسة مثل هؤلاء هلاك! فهؤلاء أمراضهم قلوبهم الميتة تُعدي! فنعوذ بالله من موت القلوب.

3. القلب السقيم

هذا قلب فيه حياة لكن أيضًا فيه علة. وكما يصف ابن القيم هذا القلب: "**له مادّتان تمُدّه**" يعني مادة الحياة تمدُّ القلب ومادة العِلَّة والمرض تمد القلب.

"**وهو لما غَلب عليه منهما**" يعني هذا القلب فيه محبَّة الله، فيه الإيمان، فيه الإخلاص، فيه التوبة، فيه التوكُّل، فهو حي بهذا. لكن في الجهة الأخرى محبَّة الشهوات وفيه إيثارها والحرص على تحصيلها، وفيه الأمراض الخطيرة: فيه الحسد، فيه الكبر، فيه العجب، فيه حب العلو، فيه الفساد في الأرض–والله المستعان–.

وهو مُمتحَن بين داعيين:

1. داعٍ يدعوه لله ولرسوله والدار الآخرة.
2. وداعٍ يدعوه للعجلة التي تعجل به في العاجلة، أي يأخذ كل شيء بعجل من الدنيا، وهو يجيب أقربهما وأكثرهما جوارًا له–والله المستعان–.

ولذلك في سورة الحج يقول–سبحانه وتعالى–مُخبرًا عن هذه القلوب: {لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ }[(1)] فالصنف لأول: في قلوبهم مرض، وهناك القاسية قلوبهم، وهناك من تخبت له قلوبهم.

إذًا الآية في سورة الحج تدل أن هناك ثلاثة قلوب:

قلبانِ مفتونانِ وقلبٌ ناجٍ.

فالمفتونان هما:

1. القلب الذي فيه مرض.
2. والقلب القاسي.

والناجي هو:

3. القلب المؤمن الليّن المُخبت إلى ربه، وهو المطمئن إليه الخاضع المُستسلم المنقاد.

* *وهذا الكلام تجده مقررًا عند ابن القيم في إغاثة اللهفان.*

ما الذي عليَّ فعله مادام أن هناك قلب مريض وهناك قلب صحيح؟

أول الأمر من المهم أن تعرف علامات الصحيح من المريض! ثم إذا تحصَّل لك ذلك نأتي فنقول: كيف يكون الصلاح؟

علامات صحة القلب:

(1) [سورة الحج: 53-54]

- القلب الصحيح لا يزال يدافع صاحبه ويؤلمه حتى يتوب إلى الله ويُنيب.
- القلب الصحيح إذا فاتته طاعة وجد لفواتها ألمًا أشد من فوات ماله.
- القلب الصحيح إذا أتته مصيبة ميَّز إن كانت هي في الدين أم في الدنيا، فإذا كانت في الدنيا لم يبالي، وإذا كانت في الدين فزع، مما يدل على أن تمحيص المصيبة والبلوى التي تأتيك هل هي في الدين أو في الدنيا، فهذا يدل على حياة قلبك.
- القلب الصحيح أشحّ بوقته أن يضيع من الشحيح بماله.
- القلب الصحيح يعتني بتصحيح عمله من جهة نيته ومقصده أكثر من اهتمامه بكثرة الأعمال، فالمهم عنده أن يعمل العمل على سنة النبي–صلى الله عليه وسلم–وأن يعمل عملًا صادقًا مخلصًا ويفتش في نفسه عن إرادته أهم عنده من أن يعمل أعمالًا كثيرة ولا يدري عن حالها.
- القلب الصحيح لا يفتر عن ذكر ربه، ويجد وحشة في نفسه إن طال مقامه ولم يذكر ربه.
- القلب الصحيح يجد لذةً في عبادته خصوصًا في صلاته فهي في الحقيقة حياته، ويجد لذةً في عباداته على وجه العموم.

علامات مرض القلب:

- القلب المريض يُقدم الأدنى على الأعلى فيهتم بتوافه الأمور على حساب دينه.
- القلب المريض يكره الحق ويضيق به صدره، خصوصًا أنّه يجد أن هذا الحق يخالف هواه فيكرهه. – ليس كل حق يكرهه لكن يكره الحق الذي يخالف هواه–
- القلب المريض يقبل أي شُبهة تأتيه ويتأثر بها –نعوذ بالله من الشيطان الرجيم–
- القلب المريض يُحب المعصية ولا تُؤلمه جراحات الذنوب.
- القلب المريض لا يُحب ذكر الله ولا الأماكن الطيبة ولا أهل الخير، لا يُحب الطاعات وتكون ثقيلة على قلبه.
- القلب المريض ضعيف في خوفه من الله – والله المستعان – .

***وهذه أشهر العلامات، وهناك كثير من أهل العلم من تكلَّم عن علامات صحة القلب ومرضه وهناك قصيدة لطيفة لابن عتيق يتكلَّم عن صحة القلب وسقمه فيُنصح بقراءتها.**

مرةً أخرى:

القلب الصحيح هو الذي همّه كله في الله، حبه كله له، وقصده لله وبدنه لله وأعماله لله ونومه لله ويقظته لله. هذا يُحب الخلوة ويؤثرها على الخُلطة إلا حيث تكون الخُلطة أحب إلى الله. صاحب القلب الصحيح كأنه يقول في حياته: لبيك وسعديك، يتمثَّل أنه سامع مُطيع ممتثل، يشعر بنعم الله، فهو الذي قال الله-عز وجل-فيه: {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا}[1] فهذا قلبه حي وفيه نور؛ ومن أجل أنَّ في قلبه نور فهو يسمع ويُبصر ويعقل.

أمَّا القلب الميت فإنه لا يسمع ولا يبصر! قال تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[2] يعني أن القلب الميّت لا يسمع ولا يبصر، والقلب الحي يسمع ويبصر ويعقل.

وأمَّا القلب المريض فقال سبحانه وتعالى: {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ}[3] إذًا هؤلاء أبدانهم حيَّة تسمع الأصوات وترى الأشخاص، لكن حياة البدن دون حياة القلب مثل البهائم، لها سمع وبصر وهي تأكل وتشرب لكنهم مثلما قال الله-عز وجل-: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً}[4] الله شبَّههم بالغنم الذي ينعق بها الراعي وهي لا تسمع إلا نداءً لكن لا تفهم ما الذي يقوله! والمعنى أن مثل هؤلاء مصابون بالصمم والعمى المعنوي.

ماذا نفعل إذا وجدنا قلوبنا مرضى ووجدنا العلامات تنطبق علينا؟

علاج القلب المريض:

أول أمر وقبل كل شيء: الاستعانة بالله على صلاح القلب.

أنت قلبك لا تملكه مهما فعلت، إذا لم تستعن بربك ليس لك حيلة. النبي-صلى الله عليه وسلم-وهو النبي يدعو ربه بثبات قلبه على الهدى، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم كما في حديث أنس يُكثر أن يقول: ((يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قَلبي على دينِكَ))[5]، وقد ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

(1) [سورة الأنعام: 122]
(2) [سورة البقرة: 171]
(3) [سورة يونس: 42-43]
(4) [سورة البقرة: 171]
(5) "سنن الترمذي" (أبواب القدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم /7: باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن) صححه الألباني..

قَالَ: ((مَا مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ)) فَقِيلَ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ((وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي رَبِّي بِرَحْمَةٍ))[1].

فعلينا أن نعبد الله بالاستعانة، تلك العبادة العظيمة التي أُهملت، ((إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ))[2] عبادة على قدر أنفاسك تقوم بها.

هدي الأنبياء والصالحين في الاستعانة

هذه الاستعانة وحدها موضوع خطير يكفيك أن تفهمه من أجل أن تصل، الآن أنت تستعين بالله على صلاح قلبك هذه الاستعانة عبادة وقُربى إلى الله. انظر للأنبياء والصالحين كيف كان هديهم في الاستعانة وافعل مثلهم:

1. **نوح–عليه السلام–**كما في سورة الأنبياء: {وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}[3] إذًا طلبَ الغوث من الله، فأدركته رحمة الله.
2. **أيوب–عليه السلام–**: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ}[4] فهذه الاستعانة والانكسار والذل.
3. **يونس–عليه السلام–**: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ}[5].
4. **زكريا–عليه السلام–**: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ}[6] المقصود (فاستجبنا له).
5. **النبي–صلى الله عليه وسلم**–قال الله–عز وجل–في حقِّه وحق أصحابه: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ}[7].

فالمقصود أن العبد عليه أن يحتمي بربّه وخالقه من أجل ان يُسدَّد. أنت هذا مرادك وتريد صلاح قلبك، لكن ما الطريق للصلاح؟ الطريق يُدلك الله–عز وجل–عليه ويفتح لك أبوابه, ولذلك قال الله عز وجل في حق **موسى وهارون** : {وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}[8] يعني لمَّا أعطاهم الكتاب هداهم الصراط؛ بمعنى أن

---

(1) "صحيح مسلم" (كِتَاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ – لن ينجي أحدا منكم عمله قال رجل ولا إياك يا رسول الله قال ولا إياي إلا أن يتغمدني الله منه برحمة/2816)

(2) "سنن الترمذي" (كتاب صفة القيامة / باب يا حنظلة ساعة وساعة) وصححه الألباني.

(3) [سورة الأنبياء: 76]

(4) [سورة الأنبياء: 83–84]

(5) [سورة الأنبياء: 87–88]

(6) [سورة الأنبياء: 89–90]

(7) [سورة الأنفال: 9]

(8) [سورة الصافات: 117–118]

الله-عز وجل-يُعرّفك ويُعلِّمك الأمور بالتفصيل ويُلهمك العمل؛ ولذلك لمَّا تسمع عن أجر هؤلاء المؤمنين فيما فعلوا وانتفعوا بإيمانهم، تسمع الله-عز وجل-يقول في حقِّهم: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ}[1] يعني يهديهم بسبب إيمانهم.

المقصد أنَّ العبد عليه أن يعتني بالاستعانة لأنه كلَّما عظمت الاستعانة قرُب السداد

و قد كان **سهل بن عبد الله التُستري** يقول: "ليس بين العبد وربه طريق أقرب إليه من الافتقار" إذًا الفقر هو طريق العبد، والاستعانة هي طريق صلاح القلب والذي يقول {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}[2] هذا يقول ثبِّتنا واهدنا وزدنا هدى. فالذي يقول: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}[3] لو جمع قلبه فيها فقد حقَّق مطلبه من الاستعانة. وهذا يجعلنا نُكثر من طلب العون من الله والإكثار من قول: لا حول ولا قوة إلَّا بالله.

إذا كنّا فهمنا أن هذه أحوال القلوب (حي، ميِّت، مريض). وعرفنا علامات مرض القلب وحياته. وعرفنا أن الاستعانة هي طريقنا المجمل لصلاح القلب؛ بقي علينا معرفة منافذ الإصابة بأمراض القلوب.

منافذ الإصابة بأمراض القلوب:

1) **النظر**: لأن النظر هو الذي يُصوِّر الأشياء للقلب فيُريه الحق والباطل والعبر والعظات.
2) **السمع**: لأن به يسمع الهدى وبه يسمع الضلال أو لا يُفرِّق.
3) **التفكُّر**: يعني أسلوبك في التفكير، وهذا النوع يحصل في القلب فيسمع ويُبصر بطريقة صحيحة لكن يفكِّر بطريقة غير صحيحة، يرى الأشياء لكنه يركِّبها معًا في أسلوب تفكيره بصورة خاطئة، فهو نوع فساد يحصل للقلب يفسد به تصوُّره وإرادته ويتعطَّل سيره إلى الله أو أحيانًا يمنعه بالكليَّة.

على كل حال، الآن عرفنا الخطر الشديد الذي مصدره القلب، وكان من الواجب علينا أن نعتني به وعلينا أن نرى الأمراض التي يُمكن أن نُصاب بها، وكيف نرعى قلوبنا إن كانت مريضة، وكيف نتتبَّع أعمال وخُطَّة من أجل أن تنشط، ونرى قلوبنا واللحظات الحاسمة والمعركة التي تعيشها والصراع الذي هو باقٍ وكيف أنَّ نحن عندنا ثغرات كما اتَّفقنا (سمعنا وبصرنا).

(1) [سورة يونس: 9]
(2) [سورة الفاتحة: 6]
(3) [سورة الفاتحة: 5]

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يُصلح قلوبنا وقلوب المسلمين ويفرّج علينا كربنا بأنفسنا فإننا قد ابتلينا بقلب يتقلَّب وبنفس تهوى لا يُشفيها ولا يردَّها إلَّا الملك العظيم.

اللقاء الثاني

من عناصر اللقاء:

- طرق علاج القلب:

1) الاستعانة بالله على صلاح القلب.

2) مراعاة القلب حال مرضه، بخطوتين:

1. ملاحظة القلب.

2. تشخيص المرض.

3) تَتَبُّع الحالات التي يَنْشَط فيها هذا القلب المريض.

4) الحرص على جنود القلب، وهذا القلب له جندان:

1. جُند يُرى بالأبصار.

2. جُند لا يُرى إلا بالبصائر.

5) ملاحظة المعركة التي لابد أن تنتصر فيها التقوى

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمدُ لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الثاني ونحن نتدارس هذا الموضوع المهم، **موضوع أمراض القلوب**، وقد مرَّ علينا في اللقاء الماضي أحوال القُلوب وكيف أنَّ هناك:

1. قلب صحيح ألا وهو القلب السليم.
2. القلب الميت.
3. القلب المريض الذي فيه حياة وفيه عِلَّة.

ونبتدئ لقاءنا هذا بإكمال طرق علاج القلب:

الطريقة الأولى هي:

أن الواجب علينا تجاه قلوبنا أن نعتني بإصلاحها.

الخطوة الأولى الأساسية في الإصلاح:

الاستعانة بالله على صلاح القلب

والنبي صلى الله عليه وسلم كان يُكثر من قول: يا مُقَلِّب القُلوب ثَبِّت قلبي على دينك، وفي الحديث الذي فيه هذا الدعاء، عن أنسٍ قال: كان رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّم-يُكثرُ أنْ يقول: ((يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قَلبي على دينِكَ)) فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ آمنَّا بكَ وبما جئتَ بهِ فهلْ تخافُ علينا؟ قال: ((نعمْ، إنَّ القُلوبَ بينَ أصبُعينِ من أصابعِ اللهِ يُقلِّبها كيفَ شاءَ))[1].

وهذا معناه أنَّ العبد عليه أن يخاف من نفسه، ويعتمد على ربه، ومما يساعدنا على الاستعانة كما مرَّ معنا أن ننظُر إلى هدي الأنبياء والصاحين، فيتبيَّن لنا كيف كان ذُلُّهم وانكسارهم! وكيف عاملهم الله واستجاب لهم، فكُلَّما تَعظُم الاستعانة يقترب السَّداد.

وقد مرَّ معنا قول **سهل بن عبد الله التستري**: "ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار"؛ بمعنى أن الفقر أقرب طريق يوصل العبد إلى الله، والفقر هو أساس الاستعانة؛ لأن المُستَعين لا يَستعِين إلَّا إذا شَعَر بفقْره.

([1]) سنن الترمذي، أبواب القدر عن رسول الله-صلى الله عليه و سلم-باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، صحَّحه الألباني.

الخطوة الثانية من خطوات إصلاح القلب:

مراعاة القلب حال مرضه

مما يُصلح القلب، أن تُراعي قلبك وقت المرض؛ لأنَّه من المعلوم أن المريض يؤذيه ما لا يؤذي الصَّحيح، فالمريض يضرُّه يَسيرُ الحرّ ويَسيرُ البرد ويَسيرُ العمل؛ لأنَّ المريض لا يقوى على هذا فبسبب مرضه يصبح ضعيفًا، بمعنى أن المرض بالجُملة يُضعف المريض ويُضعف قوَّته، فلا يطيق بدنه ما يطيقه القوي، ومِن المعلوم أن الصَّحة تُحفظ بأخذ الأسباب التي تقوى بها المناعة وتمنع من حلول المرض، إذا حَصَل المرض للمريض سيزيد ضَعف قُوَّته وربَّما يُهلكه.

الحل أننا وقتما نكتشف أنَّ قلوبنا مريضة بأيِّ مرض من أمراض القلوب، بعدما تُشخِّص المرض مثلًا مريض (فيه رياء، فيه كبر، فيه عجب، فيه حسد، فيه علو في الأرض، فيه حب للرياسة)، لو شخَّصنا واكتشفنا أن القلب مريض بهذا المرض، لابد أن نكون حريصين عليه، القلب المريض يقع مباشرة في المرض على حسب ضعفه، فمثلًا:

لو إنسان لديه حالة من الكِبْر (مريض بالكِبْر) فأي نجاح بسيط جدًا أو أي ثناء عليه ولو كان من أحد ليس له قيمة، يجعله ينتفِخ وتَتَضاعَف عليه آفته ومرضه، والسبب أنه مريض، والمريض يؤذيه أقل الأشياء ليس مِثل الصحيح الذي ليس لديه هذا المرض، فعلينا أن نكون شديدي الحرص على اكتشاف أمراضنا وشديدي الحرص على إبعاد أنفسنا عن الأجواء التي تسبِّب لنا المرض.

ولو هذا رجل آفته النِّساء أو آفته هذه الشهوة فالمفروض أن يكون شديد الحرص على بصره وعلى خلطته وعلى كلامه من أجل ألَّا يقع في هذه المصيبة العظيمة.

والحقيقة أن القلب كلَّما كان أبعد من الله، كانت الآفات عليه أسرع، وكلَّما اقترب من الله بعُدت عنه الآفات، **فالغفلة تُبعد العبد عن الله**، وهذا أول بُعد! **البُعد عن الله مراتب وبعضها أشَدُّ من بعض:**

- **فالغفلة تُبعد العبد عن الله.**
- **لكن المعصية أعظم من بُعد الغفلة.**
- **والبدعة أعظم من بُعد المعصية.**
- **والنفاق والشرك أعظم من ذلك كله.**

فمعنى هذا: أنَّ الإنسان بُعْده عن الله مراتب ويترتَّب عليه أن أمراضه أيضًا ستكون مراتب!

مرَّ معنا ماذا يعني أن القلب مريض؟ وماذا يحصل لو كان مريض؟

دائماً تصوَّروا هذا المثل:

لو عين مريضة يتعذَّر عليها الإبصار، لو يد مريضة يتعذَّر عليها أعمال اليد من البطش والأخذ والمنع، لو أُذن مريضة يتعذَّر عليها السَّماع.

ماذا لو القلب مريضًا؟ يتعذَّر عليه فِعل ما من أجله خُلق؛ يعني لو القلب هذا فيه غلّ وحِقد وحَسَد، وهذا القلب كثير الظُّنون، كثير التفكير في الناس وأحوالهم، كثير المقارنة، هذه كلها أمراض. وهذه الأمراض ماذا ستفعل به في قلبه؟ من المؤكَّد أنها ستمنعه مما خُلق لأجله!

من أجل ماذا خُلق القلب هذا؟ لأجل العِلم، لأجل المعرفة، لأجل حبِّ الله، لأجل التلذُّذ بذِكر الله، لأجل إيثاره على كل الشَّهوة، فالقلب هذا خُلق للعِبادة، ومن مرض قلبه استخدم قلبه لغير العبادة!

ولمراعاة القلب حال مرضه خطوتان:

- تشخيص المرض.
- ملاحظة القلب.

تلاحظه في المواقف وأنت على ذلك عليك أن تدْرس أمراض القلوب وتفاصيلها؛ لكي تتصوَّر مقياس تقيس به قلبك، هل هو مُصاب بالكِبْر أو مُصاب بالحسد، هذا يحتاج له دراسة للنصوص.

المقصد أني أُراعي قلبي حال مرضه، أول شيء أشخِّص مرضه، هل تشعر أنه بعيد منقطع؟! إذًا هو مريض. ماذا أفعل؟! أُشَخِّص مرضه. بعد تشخيص مرضه، أُراعي القلب. بمعنى لا أُعرِّضه لأسباب تَلَفِه كما أنِّي لا أُعَرِّض بدني لأسباب التلف. فكما أن مريض الزُّكام يستخدم الحار والدافئ من المشروبات ويبتعد عن المُثلَّج والبارد منها؛ والسبب ألَّا يزداد مرضه. هذا فيما يتداوله الناس لأبدانهم وربَّما يخالف أحد. لكن المقصود أنَّ هذه الطريقة الطبيعية التي يعيش عليها الناس؛ أنهم يحمون البَدَن من أسباب المرض، أنت الآن عندما شخَّصت مرضك، بقي عليك أن تحميه من أسباب المرض، ولا تكذِب على نفسك وتقول إن هذا المدح الذي يمدحونني إيَّاه ليس بشيء أو أنا لا أشعر به، ويكون هذا المدح قد امتدَّ إلى فؤادك، ودخلت روافده في قلبك وأصبحت تُدمنه وتطلبه وتحزن إذا فَقَدْت هذا المدح! فأنت ماذا تفعل عندما تكون مريضًا بهذا المرض؟ لا تسمح أبدًا بدخول المدح إلى حياتك، تُراعي قلبك لكيلا يفسد.

أنت مُصاب بالرياء تبذل جهودك أن تحفظ قلبك وأعمالك من الرياء.

أحد مُصاب بفتنة النساء، يبتعد تمامًا في عمله وفي أي أمر له عن النساء.

أو مثلًا مفتونين بفتنة المُرْدَان، بمعنى الانحراف الجنسي، يبعد تمامًا عن أي وضع أو أي تصرُّف يُثير فيه هذا الانحراف وهكذا.

الخطوة الثالثة:

تَتَبُّع الحالات التي يَنْشَط فيها هذا القلب المريض.

معناه: أن قلوبنا مثل أبداننا حين نُحافظ عليها ونحميها من الأمور التي تكون سببًا في إهلاكها تبدأ تدُبُّ فيها الحياة، حين تدُبُّ الحياة (كأنها بدأت تعود إلى الصِّحة) ماذا نفعل؟ لا نُسارع في ترك قلوبنا ولا نَثِق أنّه تمَّت صحَّتها بل نكون في حال حرص واختبار لها، نختبرها هل هي حقًّا استقامت أم لا؟! وأيضًا نكون حذرين مِن أن نشِذ ونحن نريد من نفوسنا أن تستقيم، نحذر أن نشذ شذوذًا يجعل نفوسنا لا تستقيم.

في أبسط مثال:

إنسان بخيل بذل جهوده في علاج نفسه، وَصَل أن يكون مُبذِّر! نقول له: لا لم تسِر في الطريق الصحيح نحن نريد الأمر الوسط.

ومثلًا إنسان سريع التعلُّق بغير الله نقول له: التعلُّق بغير الله مرض، سواء بدفع منفعة أو بجر مفسدة أو التعلُّق بمعنى المحبَّة، المحبَّة التي تجر وراءها البلاءات، فهو الآن يصِل لحال خاطئة، يرفض أن يُكوِّن علاقة توصله إلى الدار الآخرة وإلى طريق الله، نقول له: التعلُّق بغير الله مرض من أشدِّ الأمراض على القلوب، تُشغِلها عمَّا خُلقت له، فتجد هذا ساهي غافل عاصي بعيد عن الله بسبب تعلُّق قلبه بغير الله، لكن هذا لا يعني أنَّه ليس هناك حالة مستقيمة بل يُمكن أن يكوِّن مع الناس علاقات دون أن يتعلَّق. لكن من هنا إلى هنا يجب أن يمرُّ الإنسان بفترة صحة، بمعنى أنَّ هذا مُصاب بالتعلُّق وعالجَ نفسه؛ في فترة العلاج يجب ألّا يَسمَح لأحد أن يَدخُل حياته لأنه مازال مريضًا؛ فأقل كلام وأقل تصرُّف يسبِّب له زيادة المرض، ولابد أن يردِّد أنَّ (من تعجَّل شيء قبل أوانه عُوقب بحرمانه!) فهذا الذي تريده سواء كان مشاعر أو منافع تريد أن تصِل إليها، لا تتعجَّلها فتُحرمها، فيبقى يُكرِّر على نفسه إلى أن يتأدب. إذا أصبح صحيحًا وأصبحت هذه الثغرة مع الدعاء والاستعانة والاستعاذة مسدودة، أو ذاق مرَّ التَّعلُّقات، ورأى الناس الذين يتعلَّق بهم كيف يَقلِبون عليه وكيف يكشِفون ستره، فلما يرى هذا ويكاد قلبه يقترب من الشفاء، فلا يثق تمامًا أن قلبه شُفي.

- بل يختبره فإذا وجد أي علامة على أنه لازال متعلِّق يعود للعلاج.
- أمَّا إذا اعتدل وضعه وأصبح يرى نفسه استقامت، وهي تستقيم عندما يُكثر من الدعاء ويسأل الله ويطلب الشفاء لقلبه فيستقيم الإنسان ولا ييأس من روح الله، من عاش هذه المعايشة والحمد لله ربنا شافاه، نقول له: احذر أن تسلك مسلكًا شاذًا فتقطع علاقات ولا يصبح عندك علاقات خوفًا من التعلُّق.

المريض نقول له: لا تصاحب أحدًا. إذا أصبح صحيحًا نقول له: لا بأس كوِّن علاقات وهذه الأخوة تنفعك عن الله.

الخطوة الرابعة من علاج القلب:

الحرص على جنود القلب

فللَّه–سبحانه وتعالى–في القلوب والأرواح جنود. وهذا القلب له جندان:

1. جُند يُرى بالأبصار.
2. جُند لا يُرى إلا بالبصائر.

ولا تنسوا أن الجنود خَدَم وأعوان، **الجنود الذين تشاهدهم بقلبك** وهم أعوان للقلب (عينك، يدك، رجلك، أذنك، لسانك، سائر الأعضاء سواء الظاهرة أو الباطنة) هذه جميعها خادمة للقلب ومُسخَّرة له؛ فهو المتصرِّف فيها وقد خُلقت مجبولة على طاعته، لا تستطيع له خلافًا ولا عليه تمرُّدًا فالقلب إذا أَمَر العين بالانفتاح انفتحت، وإذا أمر الرجل بالمشي مشت، وإذا أمر اللسان بالكلام تكلَّمت، وهذا الكلام على سائر الأعضاء.

فسبحان الله كيف أنَّ أعضاءنا وحواسنا مُسخَّرة لقلوبنا وتشهد علينا يوم القيامة! وهذا من تسخير الله–عز وجل–لنا الأشياء، يعني كل شيء حولك مُسخَّر حتى بدنك مسخَّر لقلبك!

القلب يفتقر إلى الجنود مثلما يفتقر المسافر إلى المركب والزَّاد، فلو تصوَّرنا قوله تعالى: {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ}[1]، سَيَتَبَيَّن لنا أننا في سفر، فالسَّفر إلى الله سبحانه تُقطع منازله للقلب، ولأجل السَّفر إلى الله خُلقت القلوب ومن أجل هذا السفر سُخِّرَت الأبدان للقلوب، ولهذا عندما تريد أن تُفهم أحد قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[2] معناها أنَّ أبداننا خُلِقت لطاعة قلوبنا التي هي موطن العبادة، فالإنسان الآن مركَبُه البدن وزادُه العِلم، فإذا تعلَّم الإنسان امتلأ قلبه وعمل بدنه العمل الصالح، والدنيا–كما هو معروف–مزرعة الآخرة، وما سُمِّيت دنيا إلا لأنها أدنى المنزلتين! فنحن نضطر أن نَتزوَّد منها من أجل أبداننا التي هي مركَبنا التي توصِلنا إلى الآخرة، فإذا أردنا أن نحافظ على أبداننا جلبنا إلى أبداننا ما يوافقها من الغِذاء، وأن ندفع عن أبداننا ما ينافيها من أسباب الهلاك.

انظري الأمر العجيب الآن: بدنك مُتعلِّق بقلبك، وبدنك مُجرَّد أداة وقلبك هو المحرِّك. بدنك ربنا خلقه على خِلقة معيَّنة، فمن أجل أن يبقى مركبك سليم ولا يتلف؛ وضع ربنا شهوات في القلب من أجل أن نأتي بصلاح أبداننا، فمثلًا:

في القلوب شهوة التناسل ولو لم توجد هذه الشهوة، ما بقي النسل البشري.

في القلوب شهوة الطعام والشراب ولو لم توجد، ما بقي البدن.

فالله–عز وجل–خَلَق في القلب من الشهوات ما احتاج إليها، فلا تزيد في تغذية هذه الشهوات من أجل ألَّا تهلك، يعني الشهوات الموجودة في القلب عليك أن تأخذها بالأسباب الصحيحة، فتأكل حلالًا

(1) [سورة النحل: 9]

(2) [سورة الذاريات: 56]

وتشرب حلالًا وتفعل كل ما يوصلك إلى شهواتك عن طريق الحلال، ولا تُصبح الشهوة هي مقصدك، إنما الشهوة الموجودة هي التي تقوّم البدن (فقط تقوّمه). هذا بالنسبة **للجند الظاهر**.

نأتي إلى الجند الباطن الذي لا يُرى إلا بالبصائر، هذا هو ما في القلب من إدراك؛ لأن الجند الظاهر هم الأعضاء، أمَّا الباطن فهم البواعِث والإرادات، باعث ومستحِث القلب، ماذا يفعل؟ إمَّا يجلب النافع الموافق، وإمَّا يدفع الضَّار، هذا جُند خفي في داخل الإنسان، وهذا الجند الخفي فيها لطائف من الله.

فمثلاً في شهر رمضان عندما تُفَتَّح الجنان وتُغلَّق أبواب النيران يُنادي منادٍ: يا باغي الخير أقبِل ويا باغي الشرِّ أقصِر. فهذا المُنادي الذي يُنادِي، يحصُل النداء في القلوب، وهي البواعث المحرِّكة للقيام بالعمل، كما في حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ثُمَّ قَرَأَ {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ}))[1].

يعدكم هنا اللمَّة. أين دلالة الحديث على ما نقول-على الجنود الباطنة-؟ الجنود الباطنة هي البواعِث التي تحثُّ الإنسان وفيها من ألطاف الله ما فيها، فالشيطان له لمّة والمَلَك له لمّة، واللَّمَّة: كأنه صوت يسمعه الإنسان، فهذا الصوت يحرِّك ما في وجدانه من رغائب الخير إن كان من المَلَك، ومن رغائب الشَّر إن كان من الشيطان، فاللَّمة هذه مِثل الإلهام إن كانت من المَلَك، ومثل وَسْوَسة القلب إن كانت من الشيطان، لذلك فالشيطان يُخوِّفكم "يعدكم الفقر" يعدكم أنه سيحصل ويحصل حتى يكون الإنسان عبدٌ له في مخاوفه.

فالنبي-صلى الله عليه وسلم-أَمَرنا بأمرٍ صريح، وعلينا أن نكون ملاحظين له، قال: ((فمن وجد من ذلك-لمّة الملك-فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد من الآخر-وسوسة الشيطان-فليتعوَّذ من الشيطان)).

فهذا معناه أنّ هذه جنود لابد من ملاحظتها، أنت الآن عليك أن تكون شديد الملاحظة لثغراتك، لجنودك؛ فأما الجنود الذين تُبصرهم الذين هم سمعك وبصرك وبدنك ويدك هذه كلها جنود أنت تتحكَّم فيهم، وقلبك يتحكَّم فيهم، وأمَّا الجنود الذين مرَّ معنا أنهم لا يُرَون إلا بالبصائر فهي تلك البواعِث التي في القلب. فعلينا أن نُسَكِّن حواسنا، نسكِّنها بما يجعلها تُدرك الحقائق، نأمرها بصدقٍ من قلوبنا أن نغُضَّ أبصارنا، أن نمنع آذاننا، وكل واحد على حسب مرضه، فكلَّما زادت عناية الإنسان بثغراته كلَّما كان هذا أولى في نجاحه وفلاحه.

(1) سنن الترمذي- أبواب التفسير، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – 3: ومن سورة البقرة. قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ وَهُوَ حَدِيثُ أَبِي الأَحْوَصِ لاَ نَعْلَمُهُ مَرْفُوعًا إِلاَّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الأَحْوَصِ.

الخطوة الخامسة:

ملاحظة المعركة التي لابد أن تنتصر فيها التقوى

وهذا معناه أنَّ هناك معركة، مبدؤها القلب والجنود تبع له، نحن نعرف جميعًا أن الله-سبحانه وتعالى- ابتلانا بعدو لا يفارقنا طرفة عين، لا ينام ولا يغفل، يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه، يبذل جهده في معاداتنا في كل حال، أي أمر يمكنه أن يكيدنا فيه يكيدنا، ويستعين بذلك ببني جنسنا أو بني جنسه (إمَّا شياطين الجن أو الإنس) له حبائل وغوائل نصبها ونصب فخاخه وشباكه، هذا عدوك!

يقابل ذلك أعطانا عسكر وجنود نردُّ بهؤلاء العسكر على العدو، وقامت هنا سوق الجهاد، مُدَّة عمرنا، ومدَّة عمرنا لابد أن نتصوَّر أننا لو أضفناها للآخرة كَنَفَس واحد من أنفاس الآخرة! فالقتال، هذه ساحة المعركة العظيمة التي هي قلبك دائمة، ولابد أن نعرف أن الله لا يمكن أن يسلِّط علينا هذا العدو إلَّا لأن يبقى سوق الجهاد قائم، والجهاد أحبُّ شيء إلى الله، وأهل الجهاد أرفع الخلق عند الله وأقربهم إليه وسيلة.

فالآن عدو على عبده المؤمن والمؤمن أحب الخلق إلى الله، والمؤمن يقوم بأحبِّ العبادات إلى الله (الجهاد) في القلب الذي هو خُلاصة مخلوقات الله، فالقلب هو محل معرفة الله ومحل محبَّة الله وعبودية الله والإخلاص له والتوكُّل عليه، فالله-عز وجل-ولَّى القلب أمر هذه المعركة، وأيَّده بجنود لا يفارقونه، فهؤلاء الملائكة وهذا الوحي وهذا الرسول وهذه الآيات الكثيرة التي حوله وهذا اليقين الذي يكشف له حقائق الأمور حتى أن يقينه يوصله كأنه يعاين ما وعد الله تعالى أولياؤه وحزبه الصالحين، قال تعالى:

{أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[1] وعلَّمنا الله-سبحانه وتعالى-كيفية هذه الحرب والجهاد، فجمعها لنا في أربع كلمات-كما ذكر ذلك ابن القيم- الأربع كلمات هي ختام آل عمران، بعدما ذكر أولي الألباب آخر آل عمران كان وصف كيفية هذه الحرب، فقال-سبحانه تعالى-:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا **اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ** لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[2] فسبحان الله!

لماذا؟ أنت الآن لن تهزم العدو إلَّا عندما تصبر، قلبك هذا به لَمَّة للمَلَك ولَمَّة للشيطان، ففي كل موقف وكل حالة تسمع صوت يأمرك بالخير وصوت يأمرك بالشر، فتصير معركة من صوتين:

فإن كنت **تتعلَّم** يُصبح صوت الخير أعلى من صوت الشر، لكن ليس مجرَّد التعليم هو الذي يأتي بالنتيجة، يجب أن تكون وقت اتخاذ القرار **صابر**، وليس الصبر فقط إنَّما لا يتم الصبر إلا **بمصابرة** العدو (المصابرة: المقاومة، الدفاع) إذا صابر العدو تحتاج إلى أمر آخر أن تبقى **مرابطًا** فأنت يجب عليك أن تكون على ثغرات قلبك وتحرسه، فهنا عين وهنا عين وهنا لسان وبطن وهنا يد وهنا فرج، كل هذه

(1) [سورة المجادلة: 22]

(2) [سورة آل عمران: 200]

ثغرات منها تدخل الهزائم، العدو يدخل من هذه الثغرات فيُثير هذه الأشياء عليك، ويُفسد ما استطاع أن يُفسده، فأنت عليك أن تبقى على ثغرات قلبك، عليك بالمرابطة.

هذه الثلاث التي هي إلى الآن: الصبر والمصابرة والمرابطة إذا أفلحت فنجحت تُصبح **تقيًا**. هذه هي التقوى الآن؛ فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلَّا بالتقوى.

إذًا يجب أن تنجح في اتخاذ القرار فأنت تهاجم العدو وتصبر في قتاله وتبقى على الثغور حتى لا يدخل لك منه، وفي نهاية الأمر تتصرَّف التصرُّف السليم، هذه الثلاثة تقوم على التقوى، بمعنى لا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى.

ومعناها أنه لا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر، اصبر وصابر ورابط وستجد إن شاء الله تقوى الله.

كل ثغرة من هذه الثغرات (العين والأذن واللسان واليد)، كل واحدة منها علينا أن نرابط فيها. فإذا دخل عدوك من هذه الثغرات تصبح قتيلًا أو تصبح مثقلًا بالجراحات، **ماذا عليك أن تفعل؟** أنت موجود في الحياة من أجل هذا الجهاد، تبقى على هذه الثغرات وتستعين على هذه الثغرات بأمر مهم، وهذا الأمر المهم هو دعم نفسك بالعِلم. واعلم أنَّ أخطر شيء عليك هو أن تكون جاهل وصاحب هوى؛ لأن الهوى يُحرِّك الإنسان، فلمَّا يكون الإنسان جاهل وصاحِب هوى يُركِّب الخطأ تركيبًا يجعله هُدى ورَشاد، فيعيش طوال حياته يحسب نفسه أنه يُحسن صنعًا وهو في الحقيقة بسبب جهله وهواه الذي يُعمي ويُصِم إذا تمكَّن من القلب لا يرى حقًّا إلَّا ما وافق هواه، ولا يرى باطلًا إلا ما يُنكره هواه.

فالعِلم يجب أن يأتي معه مجاهدة الهوى، لأن الإنسان يمكن أن يستخدم العِلم في تأييد هواه.

معنى ذلك أن النقطة الأخيرة في الكلام عن إصلاح القلب هو ملاحظة الثغور ومعرفة النقطة التي نعيشها، وملاحظة القلب والاهتمام بالنقاط الأربعة التي هي في أواخر آل عمران.

فالقلب كالمرآة والهوى كالصدأ فيها، فإذا خَلُصَت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي، لكن إذا صدأت لا تنطبع صورة الحقائق؛ إنَّما يُصبح الأمر تخرُّصًا وظنونًا. اتباع الهوى يُطمِس نور العقل ويصبح الإنسان يرتِّب الأحداث والأوضاع على ما يهوى. فيهلَك ويخرج من المعركة خاسرًا، ويُصبح أحد جنود إبليس وهو لا يشعر.

المقصود أن صلاح قلوبنا مبني على ملاحظتنا لقلوبنا وخوفنا من هوانا.

فنسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يحفظنا من مُضِلَّات الفِتَن ما ظَهَر منها وما بَطَن، وأن يكفينا شَرّ نفسنا وشَرّ الشيطان وشِركه وأن نقترف على أنفسنا سوء أو نجرَّه إلى مُسلِم.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد.

اللقاء الثالث

من عناصر اللقاء :

السلام عليكم ورحمة الله

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الثالث من سلسلة لقاءات أمراض القلوب. نُكمل في هذا اللقاء ما توقَّفنا عنده من ذكر الجهاد وكيف أن الله-عزَّ وجلَّ-أخبرنا كما في أواخر آل عمران بكيفية الحرب والجهاد، فقال لنا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[1]

فكان أول الأمر:

1. **اصبروا**.
2. و**صابروا**: بمعنى قاوموا العدو ونازلوه.
3. و**رابطوا**: وهذا معناه أن هناك ثغرات علينا أن نلزمها ونحرسها.
4. و**اتَّقوا الله**: والتقوى جماع هذه الثلاثة وعمودها، فالتَّقي هو الذي صبر وصابر ورابط.

ونحن لا زلنا نؤكِّد على هذا المعنى بأنّ الله-عزَّ وجلَّ-لمَّا سلَّط هذا العدوّ على المؤمن، لم يُسلِّطه إلَّا لأنَّه يحبُّ من المؤمن أن يجاهد، فالجهاد أحبُّ شيء إلى الله وأحبُّ الأعمال إليه، والمجاهدين أرفع الخلق عند الله وأقربهم إلى الله وسيلة، فهذه الحرب دائرة بين القلب وبين العدوّ، والقلب هو محلُّ معرفة الله ومحبَّة الله وعبودية الله، ومحلُّ الإخلاص والتوكُّل والإنابة، فالله-عزَّ وجلَّ-ولَّى القلب هذه الحرب، وأيَّد القلب بجند، فهؤلاء الجند عليك بمعرفتهم للانتفاع منهم.

وقد ذكر ابن القيم في (الجواب الكافي) كلام جميل حول هؤلاء الجند، ننقله كما هو، يقول:

" ثُمَّ أَمَدَّهُ سُبْحَانَهُ بِجُنْدٍ آخَرَ مِنْ وَحْيِهِ وَكَلَامِهِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولَهُ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وَأَنْزَلَ إِلَيْهِ كِتَابَهُ، فَازْدَادَ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِهِ، وَمَدَدًا إِلَى مَدَدِهِ، وَعُدَّةً إِلَى عُدَّتِهِ، وَأَمَدَّهُ مَعَ ذَلِكَ بِالْعَقْلِ وَزِيرًا لَهُ وَمُدَبِّرًا، وَبِالْمَعْرِفَةِ مُشِيرَةً عَلَيْهِ نَاصِحَةً لَهُ، وَبِالْإِيمَانِ مُثَبِّتًا لَهُ وَمُؤَيِّدًا وَنَاصِرًا، وَبِالْيَقِينِ كَاشِفًا لَهُ عَنْ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، حَتَّى كَأَنَّهُ يُعَايِنُ مَا وَعَدَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْلِيَاءَهُ وَحِزْبَهُ عَلَى جِهَادِ أَعْدَائِهِ، فَالْعَقْلُ يُدَبِّرُ أَمْرَ جَيْشِهِ، وَالْمَعْرِفَةُ تَصْنَعُ لَهُ أُمُورَ الْحَرْبِ وَأَسْبَابَهَا وَمَوَاضِعَهَا اللَّائِقَةَ بِهَا، وَالْإِيمَانُ يُثَبِّتُهُ وَيُقَوِّيهِ وَيُصَبِّرُهُ، وَالْيَقِينُ يُقْدِمُ بِهِ وَيَحْمِلُ بِهِ الْحَمَلَاتِ الصَّادِقَةَ".

- النبي: نموذج يسير على هديه.
- الكتاب: منهج يستقي منه.
- العقل: ينظر ويتدبَّر ويفكِّر.
- المعرفة: التي ستأتيه من الرسول والكتاب، تشير إليه وتنصحه.
- الإيمان: مما يثبِّت الإنسان ويؤيِّده.

(1) [سورة آل عمران: 200]

- اليقين: وهو الإيمان القويّ، تأتي منه لحظات تكشف الحقائق فكأنَّه يعاين ما وعد الله، عندما يكون عنده يقين فتهجم عليه الشهوات وتأتيه الأمراض يهجم على عدوه وعلى مرضه فيمنعه.

ابن القيم صوَّر المسألة تصويرًا حسِّيًا؛ أن هذا القلب يُهاجَم مِن قِبل العدو، والله-عزَّ وجلَّ-مدَّ القلب بجنود (الرسول، والوحي الذي نزل في الكتاب، والعقل والمعرفة والإيمان واليقين).

ثم يقول:

"ثُمَّ أَمَدَّ سُبْحَانَهُ الْقَائِمَ بِهَذِهِ الْحَرْبِ بِالْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَجَعَلَ الْعَيْنَ طَلِيعَتَهُ، وَالْأُذُنَ صَاحِبَ خَبَرِهِ، وَاللِّسَانَ تُرْجُمَانَهُ، وَالْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ أَعْوَانَهُ، وَأَقَامَ مَلَائِكَتَهُ وَحَمَلَةَ عَرْشِهِ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَيَسْأَلُونَ لَهُ أَنْ يَقِيَهُ السَّيِّئَاتِ وَيُدْخِلَهُ الْجَنَّاتِ، وَتَوَلَّى سُبْحَانَهُ الدَّفْعَ وَالدِّفَاعَ عَنْهُ بِنَفْسِهِ وَقَالَ: هَؤُلَاءِ حِزْبِي، وَحِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الْمُجَادَلَة:22].

- فهذا سمعه وبصره ويديه ورجليه كلها من جنوده إن استخدمها كما ينبغي.
- وَأَقَامَ مَلَائِكَتَهُ وَحَمَلَةَ عَرْشِهِ، هذه كلها أعوان له لكي يَسلم-سبحان الله-حتى أن الملائكة تستغفر له وتسأل الله أن يقيه السيئات.
- إذا تبيَّن هذا؛ عرفنا وأكَّدنا على معنى أننا نجاهد، وأننا حقًا في معركة وأن قلوبنا يهجم عليها العدو فيُقاتلها وتقاتله، والقلب عدوُّه آفاته. هو يملك جند وهناك آفات تُصيبه، ورأس آفاته عدوه الشيطان.

وسأنقل بعضًا من كلام ابن القيم أيضًا يصف لنا شيء من هذه المعركة، يقول:

" فَانْظُرِ الْآنَ فِيكَ إِلَى الْتِقَاءِ الْجَيْشَيْنِ، وَاصْطِدَامِ الْعَسْكَرَيْنِ وَكَيْفَ تُدَالُ مَرَّةً، وَيُدَالُ عَلَيْكَ أُخْرَى؟ أَقْبَلَ مَلِكُ الْكَفَرَةِ بِجُنُودِهِ وَعَسَاكِرِهِ، فَوَجَدَ الْقَلْبَ فِي حِصْنِهِ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّ مَمْلَكَتِهِ، أَمْرُهُ نَافِذٌ فِي أَعْوَانِهِ، وَجُنْدُهُ قَدْ حَفُّوا بِهِ، يُقَاتِلُونَ عَنْهُ وَيُدَافِعُونَ عَنْ حَوْزَتِهِ، فَلَمْ يُمْكِنْهُمُ الْهُجُومُ عَلَيْهِ إِلَّا بِمُخَامَرَةِ بَعْضِ أُمَرَائِهِ وَجُنْدِهِ عَلَيْهِ، فَسَأَلَ عَنْ أَخَصِّ الْجُنْدِ بِهِ وَأَقْرَبِهِمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً، فَقِيلَ لَهُ: هِيَ النَّفْسُ، فَقَالَ لِأَعْوَانِهِ: ادْخُلُوا عَلَيْهَا مِنْ مُرَادِهَا، وَانْظُرُوا مَوَاقِعَ مَحَبَّتِهَا وَمَا هُوَ مَحْبُوبُهَا فَعِدُوهَا بِهِ وَمَنُّوهَا إِيَّاهُ وَانْقُشُوا صُورَةَ الْمَحْبُوبِ فِيهَا فِي يَقَظَتِهَا وَمَنَامِهَا، فَإِذَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ وَسَكَنَتْ عِنْدَهُ فَاطْرَحُوا عَلَيْهَا كَلَالِيبَ الشَّهْوَةِ وَخَطَاطِيفَهَا، ثُمَّ جُرُّوهَا بِهَا إِلَيْكُمْ، فَإِذَا خَامَرَتْ عَلَى الْقَلْبِ وَصَارَتْ مَعَكُمْ عَلَيْهِ مَلَكْتُمْ ثَغْرَ الْعَيْنِ وَالْأُذُنِ وَاللِّسَانِ وَالْفَمِ وَالْيَدِ وَالرِّجْلِ، **فَرَابِطُوا عَلَى هَذَا الثُّغُورِ كُلَّ الْمُرَابَطَةِ**، فَمَتَى دَخَلْتُمْ مِنْهَا إِلَى الْقَلْبِ فَهُوَ قَتِيلٌ أَوْ أَسِيرٌ، أَوْ جَرِيحٌ مُثْخَنٌ بِالْجِرَاحَاتِ، وَلَا تُخْلُوا هَذِهِ الثُّغُورَ، وَلَا تُمَكِّنُوا سَرِيَّةً تَدْخُلُ فِيهَا إِلَى الْقَلْبِ فَتُخْرِجَكُمْ مِنْهَا، وَإِنْ غُلِبْتُمْ فَاجْتَهِدُوا فِي إِضْعَافِ السَّرِيَّةِ وَوَهَنِهَا، حَتَّى لَا تَصِلَ إِلَى الْقَلْبِ، فَإِنْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ وَصَلَتْ ضَعِيفَةً لَا تُغْنِي عَنْهُ شَيْئًا".

- تُدال مرَّة ويُدال عليك: أي تنتصر مرَّة ويُنتصر عليك.

- بمُخامرةٍ: بغش ومخادعة.
- ما هو محبوبها: انظروا إلى النفس ما تُحب.
- فإذا اطمأنَّت إليه: أي إذا اطمأنَّت النفس إلى هذا المحبوب وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطاطيفها، ثم جرُّوها بها إليكم فتصبح شديدة التعلُّق، ما تريد أن تترك شيئًا من الأعمال التي تعلَّقت بها.
- الثُّغور: العين والأُذن واللسان والفم واليد والرجل.
- لا تمكِّنوا سريَّة: سريَّة من العلم أو سريَّة من الجهاد.

سيتبيَّن لنا هذا أكثر في النظر إلى كل ثغرة ماذا يفعل بها

الآن بعدما يستولي الشيطان على النفس تُصبح هناك معركة بين النفس من جهة-التي استولى عليها العدو الشيطان- وبين القلب من جهة أخرى. والنفس تستولي على الثُّغور (العين والأذن...).

تبدأ المعركة مع الجوارح الآن، **فالقلب** الذي به السلامة **ماذا يفعل؟** يبذل جهوده مع كل جارحة من الجوارح أن يجعلها على سالمة.

لكن **عدوه الشيطان والنفس**-الشيطان ركب النفس-.

فاستفاد من صفات النفس ونقصها وطمعها ومِن حبِّها للدنيا فأصبح يهاجم الثَّغرات.

سنرى الآن من كلام ابن القيم ماذا يحصل:

ثَغْرُ الْعَيْنِ

"فَإِذَا اسْتَوْلَيْتُمْ عَلَى هَذِهِ الثُّغُورِ فَامْنَعُوا ثَغْرَ الْعَيْنِ أَنْ يَكُونَ نَظَرُهُ اعْتِبَارًا، بَلِ اجْعَلُوا نَظَرَهُ تَفَرُّجًا وَاسْتِحْسَانًا وَتَلَهِّيًا، فَإِنِ اسْتَرَقَ نَظَرُهُ عِبْرَةً فَأَفْسِدُوهَا عَلَيْهِ بِنَظَرِ الْغَفْلَةِ وَالِاسْتِحْسَانِ وَالشَّهْوَةِ، فَإِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ وَأَعْلَقُ بِنَفْسِهِ وَأَخَفُّ عَلَيْهِ، وَدُونَكُمْ ثَغْرَ الْعَيْنِ، فَإِنَّ مِنْهُ تَنَالُونَ بُغْيَتَكُمْ، فَإِنِّي مَا أَفْسَدْتُ بَنِي آدَمَ بِشَيْءٍ مِثْلِ النَّظَرِ، فَإِنِّي أَبْذُرُ بِهِ فِي الْقَلْبِ بَذْرَ الشَّهْوَةِ، ثُمَّ أَسْقِيهِ بِمَاءِ الْأُمْنِيَّةِ، ثُمَّ لَا أَزَالُ أَعِدُهُ وَأُمَنِّيهِ حَتَّى أُقَوِّيَ عَزِيمَتَهُ وَأَقُودَهُ بِزِمَامِ الشَّهْوَةِ إِلَى الِانْخِلَاعِ مِنَ الْعِصْمَةِ، فَلَا تُهْمِلُوا أَمْرَ هَذَا الثَّغْرِ وَأَفْسِدُوهُ بِحَسَبِ اسْتِطَاعَتِكُمْ، وَهَوِّنُوا عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَقُولُوا لَهُ: مِقْدَارُ نَظْرَةٍ تَدْعُوكَ إِلَى تَسْبِيحِ الْخَالِقِ وَالتَّأَمُّلِ لِبَدِيعِ صَنِيعِهِ، وَحُسْنِ هَذِهِ الصُّورَةِ الَّتِي إِنَّمَا خُلِقَتْ لِيَسْتَدِلَّ بِهَا النَّاظِرُ عَلَيْهِ، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ لَكَ الْعَيْنَيْنِ سُدًى، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ الصُّورَةَ لِيَحْجُبَهَا عَنِ النَّظَرِ".

- اجعلوا العين لا تنظر نظر اعتبار، بل اجعلوا نظره تفرُّجًا واستحسانًا وتلهِّيًا، وهذا أوَّل تلاعب من الشيطان بالنفس وبثغرة العين.
- إذا في الوسط استيقظ بصره ومدَّ قلبه بنظر جيد، فكانت نظرة عبرة، أنتم ماذا تفعلون؟ أفسدوها عليه بنظرة الغفلة! فإنه مائل إلى نظرة الشهوة والاستحسان.

- النظر أخطر شيء تملكه، والشيطان أكثر ما يستعمل عليك النظر، فهو بالنظر يبذر بذر الشهوة في الإنسان ثم يسقيه بماء الأمنية، ثم لا يزال يعده ويمنّيه حتى يقوّي عزيمته–على الباطل–ويقوده بزمام الشهوة إلى الانخلاع من الاستقامة.
- فالشيطان يقول لجنده لا تهملوا أمر هذا الثغر وأفسدوه بحسب استطاعتكم.
- وهوّنوا عليه أمره: أي اجعلوه ينظر ولا يرى بأس في النظر، ينظر إلى الأشياء المحرَّمة ولا يشعر بأن هذا أمر خطير!
- وما خلق الله لك العينين سدى، وما خلق الله هذه الصورة ليحجبها عن النظر: بذلك هو يُغري الرجل بالنظر للمرأة، ويغري المرأة بالنظر للرجل.

إذًا أول ثغرة نُصاب منها والنفس تكون بمثابة العدو وتأمر بالسوء، تتدخَّل بين القلب السليم وبين العين، تتدخَّل بين القلب السليم وبين السمع. فالعين الآن جُند فماذا تفعل هذه الجند؟ تبذر في القلب بذرة الشهوة.

وسنرى الآن ثغر الأذن أيضًا فيقول ابن القيم:

ثَغْرُ الْأُذُنِ

" ثُمَّ امْنَعُوا ثَغْرَ الْأُذُنِ أَنْ يُدْخِلَ عَلَيْهِ مَا يُفْسِدُ عَلَيْكُمُ الْأَمْرَ، فَاجْتَهِدُوا أَنْ لَا تُدْخِلُوا مِنْهُ إِلَّا الْبَاطِلَ، فَإِنَّهُ خَفِيفٌ عَلَى النَّفْسِ تَسْتَحْلِيهِ وَتَسْتَحْسِنُهُ، تَخَيَّرُوا لَهُ أَعْذَبَ الْأَلْفَاظِ وَأَسْحَرَهَا لِلْأَلْبَابِ، وَامْزِجُوهُ بِمَا تَهْوَى النَّفْسُ مَزْجًا.

وَأَلْقُوا الْكَلِمَةَ فَإِنْ رَأَيْتُمْ مِنْهُ إِصْغَاءً إِلَيْهَا فَزُجُّوهُ بِأَخَوَاتِهَا، وَكُلَّمَا صَادَفْتُمْ مِنْهُ اسْتِحْسَانَ شَيْءٍ فَاهْجُوا لَهُ بِذِكْرِهِ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ يَدْخُلَ مِنْ هَذَا الثَّغْرِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ أَوْ كَلَامِ رَسُولِهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–أَوْ كَلَامِ النُّصَحَاءِ، فَإِنْ غُلِبْتُمْ عَلَى ذَلِكَ وَدَخَلَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَحُولُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ فَهْمِهِ وَتَدَبُّرِهِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ وَالْعِظَةِ بِهِ، إِمَّا بِإِدْخَالِ ضِدِّهِ عَلَيْهِ، وَإِمَّا بِتَهْوِيلِ ذَلِكَ وَتَعْظِيمِهِ وَأَنَّ هَذَا أَمْرٌ قَدْ حِيلَ بَيْنَ النُّفُوسِ وَبَيْنَهُ فَلَا سَبِيلَ لَهَا إِلَيْهِ، وَهُوَ حِمْلٌ يَثْقُلُ عَلَيْهَا لَا تَسْتَقِلُّ بِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَإِمَّا بِإِرْخَاصِهِ عَلَى النُّفُوسِ، وَأَنَّ الِاشْتِغَالَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِمَا هُوَ أَعْلَى عِنْدَ النَّاسِ، وَأَعَزُّ عَلَيْهِمْ، وَأَغْرَبُ عِنْدَهُمْ، وَزُبُونُهُ الْقَابِلُونَ لَهُ أَكْثَرُ، وَأَمَّا الْحَقُّ فَهُوَ مَهْجُورٌ، وَقَائِلُهُ مُعَرِّضٌ نَفْسَهُ لِلْعَدَاوَةِ، وَالرَّابِحُ بَيْنَ النَّاسِ أَوْلَى بِالْإِيثَارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَتُدْخِلُونَ الْبَاطِلَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ قَالَبٍ يَقْبَلُهُ وَيَخِفُّ عَلَيْهِ، وَتُخْرِجُونَ لَهُ الْحَقَّ فِي كُلِّ قَالَبٍ يَكْرَهُهُ وَيَثْقُلُ عَلَيْهِ.

وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ فَانْظُرْ إِلَى إِخْوَانِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ، كَيْفَ يُخْرِجُونَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي قَالَبِ كَثْرَةِ الْفُضُولِ، وَتَتَبُّعِ عَثَرَاتِ النَّاسِ، وَالتَّعَرُّضِ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ، وَإِلْقَاءِ الْفِتَنِ بَيْنَ النَّاسِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَيُخْرِجُونَ اتِّبَاعَ السُّنَّةِ وَوَصْفَ الرَّبِّ تَعَالَى بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–فِي قَالَبِ التَّجْسِيمِ وَالتَّشْبِيهِ وَالتَّكْيِيفِ.

والمقصود: أن الشيطان قد لزم ثغر الأُذن، أن يدخل فيها ما يضر العبد ولا ينفعه، ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه، وإن دخل بغير اختياره أفسده عليه.

- ما يُفسد عليكم الأمر: أي ما يُفسد عليكم فسادكم، بمعنى ما يصلح هذا الإنسان.
- خفيف على النفس: هذه النفس التي أصبحت مركبًا للشيطان، يركبها على القلب ويُفسد القلب الذي جاء من ربنا سليم وصافي.
- النفس التي فسدت تستحلي الباطل.
- الهجوا له بذكره: أي يبقى هذا الشيء يتكرَّر يقوله ويجري على لسانه، يُذكِّره به الشيطان.
- وإمَّا بتهويل ذلك وتعظيمه: أي يسألونه: كيف تريد أن تتدبَّر القرآن؟ وكيف تتجرَّأ وتقول إنك تريد أن تفهم كلام الله؟ يعني إذا أراد أن يتدبَّر كلام الله وكلام رسوله كوَّنوا حائل بينه وبين الفهم والتدبُّر والتفكُّر وذلك بإدخال ضده عليه أو تعظيم الأمر وأنه لا سبيل لك.
- وإمَّا بإرخاصه على النفوس: أي أنه ليس شيئًا مهمًا أن تفهم القرآن!
- وقائله معرِّض نفسه للعداوة، والرابح بين الناس أولى بالإيثار ونحو ذلك، **فماذا يفعل؟** يكلِّم الناس بالشيء الذي يقبلونه الناس، فيقول: أنا أريد أن يرضى عنِّي الناس، أريد أن أكون محبوبًا، تريدني أن أكلِّمهم عن كلام الله وكلام رسوله؟ فهذا اشتغالي به لن يجعل لي مكانًا عند الخلق! من ثَمَّ ينشغل عنه.
- يجعلون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصفه فضول، فلا تتدخَّل فيما لا يعنيك، وأنك حين تأمره كأنك تتَّبع عثرات الناس.

المقصود أن الشيطان قد لزم ثغرة الأذن أن يُدخل فيها ما يضر العبد ولا ينفعه، ويمنع أن يدخل إليها ما ينفع، وإذا دخل بغير اختياره أفسده عليه.

نأتي للمعركة عند:

ثَغْرُ اللِّسَانِ

ثُمَّ يَقُولُ: قُومُوا عَلَى ثَغْرِ اللِّسَانِ، فَإِنَّهُ الثَّغْرُ الْأَعْظَمُ، وَهُوَ قُبَالَةُ الْمَلِكِ، فَأَجْرُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَضُرُّهُ وَلَا يَنْفَعُهُ، وَامْنَعُوهُ أَنْ يَجْرِيَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَنْفَعُهُ: مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِغْفَارِهِ، وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ، وَنَصِيحَةِ عِبَادِهِ، وَالتَّكَلُّمِ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَيَكُونُ لَكُمْ فِي هَذَا الثَّغْرِ أَمْرَانِ عَظِيمَانِ، لَا تُبَالُونَ بِأَيِّهِمَا ظَفِرْتُمْ:

أَحَدُهُمَا: التَّكَلُّمُ بِالْبَاطِلِ، فَإِنَّمَا الْمُتَكَلِّمُ بِالْبَاطِلِ أَخٌ مِنْ إِخْوَانِكُمْ، وَمِنْ أَكْبَرِ جُنْدِكُمْ وَأَعْوَانِكُمْ.

الثَّانِي: السُّكُوتُ عَنِ الْحَقِّ، فَإِنَّ السَّاكِتَ عَنِ الْحَقِّ أَخٌ لَكُمْ أَخْرَسُ، كَمَا أَنَّ الْأَوَّلَ أَخٌ نَاطِقٌ، وَرُبَّمَا كَانَ الْأَخُ الثَّانِي أَنْفَعَ أَخَوَيْكُمْ لَكُمْ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ النَّاصِحِ: الْمُتَكَلِّمُ بِالْبَاطِلِ شَيْطَانٌ نَاطِقٌ، وَالسَّاكِتُ عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانٌ أَخْرَسُ؟

فَالرِّبَاطَ الرِّبَاطَ عَلَى هَذَا الثَّغْرِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِحَقٍّ أَوْ يُمْسِكَ عَنْ بَاطِلٍ، وَزَيِّنُوا لَهُ التَّكَلُّمَ بِالْبَاطِلِ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَحَوِّفُوهُ مِنَ التَّكَلُّمِ بِالْحَقِّ بِكُلِّ طَرِيقٍ.

وَاعْلَمُوا يَا بَنِيَّ أَنَّ ثَغْرَ اللِّسَانِ هُوَ الَّذِي أُهْلِكُ مِنْهُ بَنِي آدَمَ، وَأَكُبُّهُمْ مِنْهُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ، فَكَمْ لِي مِنْ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ وَجَرِيحٍ أَخَذْتُهُ مِنْ هَذَا الثَّغْرِ؟

وَأُوصِيكُمْ بِوَصِيَّةٍ فَاحْفَظُوهَا: لِيَنْطِقْ أَحَدُكُمْ عَلَى لِسَانِ أَخِيهِ مِنَ الْإِنْسِ بِالْكَلِمَةِ، وَيَكُونُ الْآخَرُ عَلَى لِسَانِ السَّامِعِ فَيَنْطِقُ بِاسْتِحْسَانِهَا وَتَعْظِيمِهَا وَالتَّعَجُّبِ مِنْهَا وَيَطْلُبُ مِنْ أَخِيهِ إِعَادَتَهَا، وَكُونُوا أَعْوَانًا عَلَى الْإِنْسِ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَادْخُلُوا عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَسَمِي الَّذِي أَقْسَمْتُ بِهِ لِرَبِّهِمْ حَيْثُ قُلْتُ : {فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [سُورَةُ الْأَعْرَافِ 16 - 17] .

أَوَمَا تَرَوْنِي قَدْ قَعَدْتُ لِابْنِ آدَمَ بِطُرُقِهِ كُلِّهَا، فَلَا يَفُوتُنِي مِنْ طَرِيقٍ إِلَّا قَعَدْتُ لَهُ بِطَرِيقٍ غَيْرِهِ، حَتَّى أُصِيبَ مِنْهُ حَاجَتِي أَوْ بَعْضَهَا؟ وَقَدْ حَذَّرَهُمْ ذَلِكَ رَسُولُهُمْ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِطُرُقِهِ كُلِّهَا، وَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ: أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ؟ فَخَالَفَهُ وَأَسْلَمَ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: أَتُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟ فَخَالَفَهُ وَهَاجَرَ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: أَتُجَاهِدُ فَتُقْتَلَ فَيُقَسَّمَ الْمَالُ وَتُنْكَحَ الزَّوْجَةُ؟

فَكَهَذَا فَاقْعُدُوا لَهُمْ بِكُلِّ طُرُقِ الْخَيْرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَتَصَدَّقَ فَاقْعُدُوا لَهُ عَلَى طَرِيقِ الصَّدَقَةِ، وَقُولُوا لَهُ فِي نَفْسِهِ: أَتُخْرِجُ الْمَالَ فَتَبْقَى مِثْلَ هَذَا السَّائِلِ وَتَصِيرَ بِمَنْزِلَتِهِ أَنْتَ وَهُوَ سَوَاءٌ؟ أَوَمَا سَمِعْتُمْ مَا أَلْقَيْتُ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ سَأَلَهُ آخَرُ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، قَالَ: هِيَ أَمْوَالُنَا إِذَا أَعْطَيْنَاكُمُوهَا صِرْنَا مِثْلَكُمْ.

وَاقْعُدُوا لَهُ بِطَرِيقِ الْحَجِّ، فَقُولُوا: طَرِيقُهُ مَخُوفَةٌ مُشِقَّةٌ، يَتَعَرَّضُ سَالِكُهَا لِتَلَفِ النَّفْسِ وَالْمَالِ، وَهَكَذَا فَاقْعُدُوا لَهُ عَلَى سَائِرِ طُرُقِ الْخَيْرِ بِالتَّنْفِيرِ عَنْهَا وَذِكْرِ صُعُوبَتِهَا وَآفَاتِهَا، ثُمَّ اقْعُدُوا لَهُمْ عَلَى طُرُقِ الْمَعَاصِي فَحَسِّنُوهَا فِي أَعْيُنِ بَنِي آدَمَ، وَزَيِّنُوهَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَاجْعَلُوا أَكْثَرَ أَعْوَانِكُمْ عَلَى ذَلِكَ النِّسَاءَ، فَمِنْ أَبْوَابِهِنَّ فَادْخُلُوا عَلَيْهِمْ، فَنِعْمَ الْعَوْنُ هُنَّ لَكُمْ.

ثُمَّ الْزَمُوا ثَغْرَ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ، فَامْنَعُوهَا أَنْ تَبْطِشَ بِمَا يَضُرُّكُمْ وَتَمْشِي فِيهِ.

- وهو قبالة الملك: أي وجهًا لوجه أمام الملك.
- امنعوه من هذا كله: أي (من ذكر الله تعالى واستغفاره، وتلاوة كتابه، ونصيحة عباده، والتكلُّم بالعلم النافع).
- أخ من إخوانكم: أي الذي يتكلَّم بالباطل، أخ من إخوان الشياطين.
- **يقول كلام عجيب في التفاعل لهذه المسألة:** "وأوصيكم بوصية فاحفظوها: لينطق أحدكم على لسان أخيه من الإنس بالكلمة" ينطق: أي يُجري هذا الشيطان على لسان الإنسان كلمة باطل.

- "ويكون الآخر على لسان السامع": يعني الاثنين الآن يجلسون مع بعض وكل واحد لديه شيطان، فالشيطان الأول عند الناطق، والشيطان الثاني عند السامع.
- ماذا يفعل؟ "فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجُّب منها" أي الأول يقول الباطل، فيتعجَّب الثاني منه ويُسعد به.
- "ويطلب من أخيه إعادتها": يأتيك مثلًا الضحك بالاستهزاء بالدين أو بأهله أو ببعض شعائره، وتستغرب أنهم يضحكون هذا الضحك، فيكون المتكلِّم معه شيطانه والسامعين معهم شياطينهم.
- "وادخلوا عليهم من كل باب واقعدوا لهم كل مرصد": هذا من أخطر ما نواجه، أنَّ متى اشتهى الإنسان أن يتكلَّم تكلم دون أن يُفكِّر فيما يتكلَّمه.
- "واجعلوا أكثر أعوانكم على ذلك النساء": المقصود أن النساء لهم أثر عظيم على رجالهم في التحسين والتقبيح وإن كانوا لا يشعرون بذلك.

على كل حال، أول معونة بدأت من أول نقاشه كانت **النفس الأمَّارة بالسوء**، هذه النفس أعظم عدو، ماذا يفعل الشيطان؟ يركبها ثم يحارب القلب بها، فكأنَّ القلب الذي هو ملك الأعضاء، ماذا يحصل له؟ تأتي النفس الأمارة بالسوء وتعزله عن أن يحكُم بما فيه من صفاء وإيمان، وتنطلق هي في الجوارح. والشيطان يصب لها وهي تسير. وهناك الغفلة والشهوات التي تُزيَّن، فهذه كلها أمور يُصبح القلب بسببها مريض ولا يستطيع الحركة ويموت، وتصبح النفس الأمارة بالسوء هي المسيطرة.

فانظروا إلى قلب مثل هذا القلب المريض! وأتاه الغضب مثلًا-الغضب هذا أحد الشهوات-وينطفئ بالماء والصلاة والذكر والتكبير، فلمَّا يكون القلب مريض ويأتي النفس الغضب، لا يستطيع القلب أن يُرشِد الجوارح فتقوم فتستعيذ وتكبِّر وتتوضأ.

~ والحقيقة: كفى بالمرء جهلًا أن يكون مع عدوِّه على نفسه ~

من هذا النقاش وهذا النقل الذي انتفعنا به من كتاب الداء والدواء لابن القيم، تبيَّن لنا أن هذه المعركة فيها جنود وهؤلاء الجنود يمكن أن يكونوا منقلبين على الإنسان، فبدلًا من أن يكون السمع والبصر واليد والقدم من

الجنود التي تزيد القلب قوة بما يحصِّله الإنسان من أسباب زيادة الإيمان، بسبب لسانه الذي يقرأ القرآن وأذنه التي تعيه وقلبه الذي يتفكَّر فيه ويده التي تُنفِّذ ما أمر به في القرآن وقدمه التي تسعى في طاعة الرحمن، بدلًا من أن تكون هذه الثغرات للقلب أصبحت عليه ومع الشيطان! والشيطان قد ركب المركب الخطير وهي نفسه الأمَّارة بالسوء.

فالحل الآن من أجل أن نعرف كيف نعالج قلبنا من أن يكون ضعيف، وأن يُعزل عن حُكمه على الجوارح، وتستولي النفس الأمَّارة بالسوء على نفوسنا فلا نجد إلَّا الهوى الذي يُعمي ويُصم، هذا يجعلنا **نبحث في الهوى** الذي وصفه الله في كتابه بوصفات عدَّة كلها تدور حول الذَّم، وأخبر في سورة النازعات عن هذا المستقيم الذي نهى النفس عن الهوى، فكأن الآن العدو تمثَّل لنا في النفس، أي الشيطان ركب مركب النفس، فهذا العدو الذي تمثَّل في النفس استطاع أن يُسيطر على النفس من جهة الهوى.

فالتفكير الآن في الهوى الخطير، لابد أن نناقشه ونرى أثره في هذه المعركة من أجل إصلاح هذا القلب، لأنه لمَّا تأتي لحظة الاعتصار بين الخير والشر في نفوسنا ولا نجد نفسنا قوية على رد الشر، تأتي لحظة الشهوة ونستسلم، تأتي لحظة التي تأمرنا النفس الأمارة بالسوء أن ننظر إلى المحرَّم فننظر، هناك معركة وصوت ضعيف يقول: لا تنظر. وصوت أقوى يقول: انظر وإنما هي نظرة ولن تخسر شيئاً. نريد أن نعرف الحل من أجل ألَّا نخسر المعركة!!

نُعرِّف الهوى ونرى كيف يحكمنا في المعركة هوى نفوسنا، وكيف نردُّه بأمر الله.

ناقشنا في اللقاء الماضي إشارات عن الهوى، لكن نزيد بيانًا أن نعرف كيف تضعف هذه الثغرات بسبب هوانا.

الهوى عبارة عن دافع داخل الإنسان يُحرِّكه إلى ما يُحب. وفيه غالبًا ميل الطبع إلى أمور خُلقت في الإنسان لضرورة بقائه، فهذه الأمور أصلًا خُلقت لضرورة البقاء، هو عليه أن يستخدم من هذه الشهوات والهوى ما يبقى معه. لكن الزيادة تُفسده.

نرى مثلاً:

- لولا ميل الإنسان إلى الطعام ما أكل، فلا يقوم بدنه.
- ولولا ميله للشراب ما شرب.
- ولولا النكاح ما استمرَّ نسل الخلق.

ولو لم يكن عنده شيء من الغضب، ما دافع عن نفسه مما يؤذيه.

فإذًا نحن نقصد بالهوى الذي يزيد فيُفسد، وحين تسمع ذمَّ الهوى والشهوات فهذا المقصود به كيد ما هو زيادة، لأنه لا يأتي في الذهن ما هو أساس! ولذلك لا يأتي أحد فيقول: لماذا ركَّب الله فينا الهوى مادام مطلوب منَّا أن نجاهد أنفسنا؟ نقول: أصل الهوى نافع لك، تأتي من ورائه مصلحة، لكن الزيادة وتجاوز الحد هو الذي يأتي بالفساد.

الإنسان إذا زاد واتَّبع هواه، سيكون أثر ذلك أنه يُعمى ولا يرى الحق، ويتحوَّل فيرى القبيح حسن والحسن قبيح، ويتأذَّى من كل حُسن ويقبل كل قبيح، يلتبس عليه الحق بالباطل فلا يتذكَّر ولا يتفكَّر ولا يتَّعظ إنَّما يأتي الهوى فيُضعف نور الإيمان في القلب.

يقول ابن الجوزي: اعلم أن مُطلق الهوى يدعو إلى اللذَّة الحاضرة من غير فكر في عاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلًا وإن كانت سببًا للآلام والأذى في العاجل ومنع لذَّات في الآجل-ومع ذلك النفس تتَّبع هواها-

قال: فأمَّا العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذة تُعقب ألمً وشهوة تورث ندمًا وكفى بهذا القدر مدحًا للعقل وذمًا للهوى-مَن لديه عقل لا يأخذ شهوة يلحقها ألم وتورث ندم-.

فلمَّا يأتي أحد يقول: لو استسلمت لنفسك ومارست كبرك كان هذا سببًا لذُلّك والله-عز وجل-يجعلك في موقف لابد أن تُذل فيه بسبب ممارستك الكِبر في موقف من المواقف. وهذا يجعلك أول ما يطرأ على قلبك لحظة الكِبر أو استحسان النفس أو العُجب تطردها وتجاهدها؛ لأن هذه لحظة يجب أن يعقبها ندم. مشاعر النشوة التي تأتي عند الإنسان في أنَّ أحدًا يراه ويرى عمله-يحصل فيها الرياء-هذه لذَّة لو فكَّر الإنسان فيها جيداً سيرى مصيبة عظيمة، فإن هذا العمل سيُحبط ولن يكون له أجر بل يُصبح وِزرًا رغم أنه عمِل عمَل ظاهره أنه موافق للشريعة. فإذًا العاقل لا يُؤثر هواه، لا يُؤثر اللذَّة الحاضرة على العاقبة التي تسبِّب له الندم.

واسمع ماذا يقول: وبهذا القدر فُضِّل الآدمي على البهائم-أعني ملَكة الإرادة-لأن البهائم واقفة مع طباعها، لا نَظر لها إلى عاقبة ولا فِكر في مآل، فهي تتناول ما يدعوها إليه الطبع من الغذاء إذا حضر، وتفعل ما تحتاج إليه من الروث والبول أي وقت اتَّفق، والآدمي يمتنع عن ذلك بقهر عقله لطبعه، وإذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالبًا وجب عليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل، فإنه سيشير عليه بالنظر في المصالح الآجلة، ويأمره عند وقوع الشُّبهة باستعمال الأحوط في كفِّ الهوى إلى أن يتيقَّن سلامة الشر في العاقبة.

ويأتي الآن كلام مهم جدًا من كلامه-أرجو أن تكونوا في غاية التركيز-

يقول: وينبغي للعاقل أن يتمرَّن على دفع الهوى، المأمون العواقب ليستمر بذلك على ترك ما تؤذي غايته. وليعلم العاقل أن مُدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذُّونها وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها لأنها قد صارت عندهم كالعيش الاضطراري، ولهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذ بذلك عُشر التلذذ ممن لم يدمن، غير أن العادة تقتضيه ذلك. فيلقي نفسه في المهالك لنيل ما يقتديه تعوُّده!

كلام عجيب إنَّما صدر من فهم دقيق للشريعة ولواقع الناس.

- "وينبغي للعاقل أن يتمرَّن على دفع الهوى المأمون العواقب" يعني فيه هوى أنت تستسلم له وتفعله وهو مأمون العواقب، يعني ما تشعر أنه يأتي بمهالك، ما تشعر أنه سيصيب منك مقتل، مأمون العواقب، تأكل أكثر، تنام أكثر، فوقت ما تشتهي تقول: أنا أشتهي أن آكل كذا، فهذا مأمون العواقب، ماهي مصيبة كبيرة.
- "ليستمر بذلك على ترك ما تؤذي غايته" يعني يجب أن تُمرِّن نفسك أنه ليس كل ما أمرتك ائتمرت. مثلًا تفتح عينيك في الساعة التاسعة صباحًا من يوم إجازة، فتقول لك نفسك: (نم قليلًا، خُذ غفوة) فتطيع، وأنت ترى أنه ليس شهوة عظيمة التي فعلتها، فنقول إن هذا الشيء المأمون العواقب معناه أنك تعايش نفسك بأسلوب تأمر وأنت تقول: سمعًا وطاعة! كلَّما أمرتك قلت لها سمعًا وطاعة فأفسدتك ولابد.
- ثم يبيِّن حقيقة لابد من فهمها، فيقول:" وليعلم العاقل أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذونها ومع ذلك لا يستطيعون تركها " مثل الإدمان، فأنت عندما تترك نفسك ولا تمسكها من البداية، ستجد نفسك قد أدمنت.
  - فالذي يدمن النظر للتلفاز، ممكن أن يأتي شيء ليس له قيمة لكنه يفتح عينيه وأذنيه لأنه أصبح مدمن لا يستطيع أن يقضي الوقت إلَّا بهذه الطريقة.
  - الذي أدمن أن يذهب للأسواق فحتى لو ليس لديه حاجة، أو حتى لو كان يشعر بالتعب من الدوران في الأسواق يشعر أن هذه حاجة لا يمكنه أن يعيش إلَّا بها.
  - مثلًا الناس الذين يمسكون جوَّالاتهم وجوَّالاتهم فيها مصائب وفيها أشياء تحزنهم وأشياء تقهرهم من زميلاتهم، ليس لديها قدرة أن تُغلق جهازها، أو تترك جهازها وتخرج من البيت، ليس عندها قدرة أن تحذف أي برنامج تواصل يؤذيها، تشعر بأنها رهينة لا تستطيع. وهذا من سيطرة الهوى، حتى أن الإنسان يصبح يرى هذه الأشياء من العيش الاضطراري لا يستطيع أن يعيش من دونه.
  - مدمنة على أن تكلِّم زميلاتها أو زيارة جاراتها، تكون مثل الآلة تتصرَّف، تذهب لهم يؤذونها وتؤذيهم يملُّوا منها وتمل منهم ثم يأتي اليوم الثاني تفعل نفس الفعل كالمدمن!! والإنسان بذلك يُلقي نفسه في المهالك.

- يقول: "ولو زال رين الهوى عن بصر بصيرته لرأى أنه قد شقي من حيث قدَّر السعادة واغتمَّ من حيث ظنَّ الفرح، وألِم من حيث أراد اللذَّة، فهو كالحيوان المخدوع بحب الفخ لا هو نال ما خُدع به ولا أطاق التخلُّص مما وقع فيه" ولذلك إمَّا تختار أن تكون مع الهدى الذي من الله، أو مع الهوى الذي ابتلي به الخلق. والله يقول: {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}[1] لا تتبع الهوى فأكيد أن النتيجة

(1) [سورة ص: 26]

هي الضلال عن سبيل الله. ولهذا **قال علي–رضي الله عنه**-:" ألا إنَّ الصَّبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا انقطع الرأس بان الجسد، ثم رفع صوته وقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له".

ما العلاقة ؟! لأن الذي ليس له صبر ما يطيق أن يتوقَّف عن عاداته و شهواته، ما يطيق أن يؤدِّب نفسه ويُسكِّتها. قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى}[1] فاتِّباع الهوى ممَّا يضر بعبادة الله.

وإن شاء الله يكون نقاشنا غدًا حول أثر الهوى على القلب وكيف يفسده.

~نسأل الله أن يُسلِّم قلوبنا من الهوى ومن كل مرض~

(1) [سورة النازعات: 40]

اللقاء الرابع

من عناصر اللقاء:

السلام عليكم ورحمة الله

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمده–سبحانه وتعالى–ونشكره، ونسأله المزيد من فضله، وهو الذي وَعد الشاكرين بالمزيد، فاللهم زِدنا إيمانًا وتوفيقًا وإحسانًا، واصرف عنَّا شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، فإنَ هوانا كثيرًا ما يغلبنا فيكون سببًا لهلاكنا.

ولهذا أمراض القلوب–التي هي موضوعنا–داؤها الرئيس الهوى. فإن **الهوى** من أعظم الشرور التي تتمكَّن في النفوس والتي نستعيذ بالله منها، فنحن نقول: نعوذ بك من شرور أنفسنا، **وأعظم الشرور الهوى.**

لماذا؟ لأن أضرار الهوى عظيمة لو تمكَّن الهوى من القلب.

الهوى يهوي بصاحبه في لُجج الفتن، فلا يرى حقًا إلَّا ما وافق هواه، ولا يرى باطلًا إلَّا ما يُنكره هواه!

وهذا مُستفاد من حديث حذيفة الذي قال فيه: سمِعتُ رسولَ اللَّهِ–صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ–يقولُ: ((تُعرَضُ الفتنُ علَى القلوبِ كالحصيرِ عودًا عودًا فأيُّ قلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ فيهِ نُكتةٌ سَوداءُ وأيُّ قلبٍ أنكرَها نُكِتَ فيهِ نُكتةٌ بَيضاءُ حتَّى تصيرَ علَى قلبَينِ علَى أبيضَ مِثلِ الصَّفا فلا تضرُّهُ فتنةٌ ما دامتِ السَّماواتُ والأرضُ والآخرُ أسوَدُ مُربادًّا كالكوزِ مُجَخِّيًا لا يعرِفُ معروفًا ولا ينكرُ مُنكرًا إلَّا ما أُشرِبَ مِن هواه)) [1].

فهذا دليل على أن غلبة الهوى تجعل الأمور تتقلَّب على صاحبها، فلمَّا يسودُّ القلب ويستحكم الهوى يصبح لا شيء يضبط الإنسان إلَّا هواه، فلا يعرف معروفًا ولا يُنكر منكرًا إلَّا ما أُشرب من هواه!

ولذلك نكرِّر دائمًا: الهوى يُعمي ويُصمُّ، فالناس حين يصيبهم الهوى لا يرون ولا يسمعون! بمعنى أنَّ الهوى يطمس نور القلب ويعمي بصره، والله يقول: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً} [2] فإذا نظر العبد إلى من يجتمع معه ويقتدي به أو يعامله، سيكون تقييمه للناس من حوله على حسب متابعتهم لهواهم، يعني هل الحاكم عليهم الهوى؟ أم الحاكم لهم الوحي؟ فإذا كان الحاكم هو الهوى لابد أن يكون أمره فُرطًا، أي لابد أن يكون أمره تضييع! بمعنى: أن رُشد هذا الإنسان وفلاحه ضائع قد فرَّط فيه. هذا الإنسان مُسرِف، هذا الإنسان هالِك.

فأنت الآن عندما تُقيّم نفسك أو تُقيّم من حولك فانظر:

- إن وجدت نفسك أو من حولك يحكمهم هواهم، ولا تجد نصوصًا أو آيات، ولا تجد تقوى وخوف من الله فاحكم على ذلك الشأن بأنه إلى تضييع.

(1) صحيح مسلم–كِتَاب الْإِيمَانِ–باب بَيَانِ أَنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا وَأَنَّهُ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ – 144

(2) [سورة الكهف: 28]

- وإذا وجدت القوم ممن غلب عليهم ذكر الله واتّباع السُّنة وليس صاحب انفراط في هواه بل هو حازم في أمره فهذا بإذن الله ممن يساعدك على حفظ دينك.

وقد تكرَّر التحذير من هؤلاء فكما أنَّ في سورة الكهف: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً} فمثله في سورة طه، فالله-عزَّ وجلَّ-ذكر هؤلاء الغافلين وخاصةً فيما يتَّصل باليوم الآخر، فنبَّه النبي موسى-صلى الله عليه وسلم-على قرب الساعة، ثم نهاه: {فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى}[1] ومعنى أن يصدَّه عن الساعة: أي يشغله عنها، فلا يصدنَّك عنها من اتَّبع هواه؛ فالآخرة وشأنها عظيم، وهناك قوم غفلت قلوبهم عن الآخرة، والغفلة تكرَّرت في كتاب الله وتجد ذكر هذه الغفلة مع القوم الفاسقين ومع الصُّحبة التي يُخاف منها.

فمن أمثلة القوم الفاسقين:

ما ضرب الله-عزَّ وجلَّ-مثل في سورة الأعراف: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[2] إذًا هؤلاء قوم فاسقين، كانوا في الطريق المستقيم ثم بسبب اتّباع الهوى ضَلُّوا.

فالناس الآن:

1. **إمَّا أصحاب** يُضلُّونك بسبب متابعتهم للهوى.
2. وإمَّا **علماء** أعطاهم الله الآيات أيضًا يضلُّونك بسبب متابعتهم للهوى.

فهذا المثل المضروب في سورة الأعراف مَثَل عالِم السوء الذي يعمل بخلاف علمه، فهو عَلِم ثم فارق الإيمان ثم الشيطان أدركه ولحقه. وترى أنه غوى بعد الرشد، وأنه بسبب هواه لم يرفعه الله بالعلم، ثم أخبر سبحانه عن خِسَّته وخِسَّة همَّته وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى، وهذا لم يكن مجرَّد خاطر أو حديث نفس هذا كان أمر ثابت في نفسه، أخلد إلى الأرض مال إليها.

والخطر كل الخطر في أن يجعل الإنسان إمامه الذي يقتدي به هو هواه (واتَّبع هواه)

فشُبِّه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات، وشُبِّه لهثه للدنيا كلهث هذا الكلب.

إذًا أنت في خطر عظيم من جهة الهوى، نفسك فيها هوى وقد يكون لك صحبة أيضًا أصحاب هوى، وربَّما يكتمل عليك الأمر فتلقى من العلماء من هم أصحاب هوى!

(1) [سورة طه: 16]

(2) [سورة الأعراف: 175-176]

فهذا أمر خطير يؤدِي في نهاية الأمر إلى سُوء الخاتمة وانسلاخ الدين؛ لأن هذا صاحب الهوى إذا سُئل في قبره: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيُّك؟ وهو طوال حياته تابع لهواه، أكيد سيكون ممَّن يقول: هاه، هاه، لا أدري. فيقال له: لا دريت ولا تليت! لا دريت عن الحقِّ ولا تليت عن العلم، وهذا من المؤكَّد سببه الهوى أي لا يدري ولا يتلو بسبب الهوى.

فالهوى يُعمي الإنسان ويُصمُّه، والهوى يقلب على الإنسان الحقائق، والهوى يشغل القلب فلا يستطيع أن يتعلَّم.

فهذا القلب مصيبته الكبيرة هواه، لكن **لماذا يتمكَّن الهوى؟** واضح في الأعراف: {أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ} إذًا أعظم أسباب تمكُّن الهوى في القلب هو **التعلُّق بالدنيا**، فمن اغترَّ بالدنيا وبذل كل جهوده في العمل لها، غفل عن الآخرة، ونال من الذلِّ والخسارة ما يستحقُّه، ولذلك قال تعالى: {وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا}[1]

وهذه الدنيا دائمًا يتنازعنا فيها أمرين:

1. شعورنا أنه لابد أن يكون هناك شؤون أقوم بها في الدنيا، فكيف أريد أن أزهد فيها وأتحوَّل عنها، وأنا لابد أن آكل وأشرب وأنام وأعايش الحياة؟!
2. وما معنى أن أخرج الدنيا من نفسي لكيلا يستولي على هوايا؟ الدنيا مطيَّة الدنيا، فالسبب الذي يجعل الهوى يتمكَّن من الإنسان هو حبُّه وتعلُّقه في الدنيا.

التوازن في هذا الأمر ورد في حديث النبي-صلى الله عليه وسلم-في صحيح البخاري، في كتاب الرقاق:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-أَنَّ رَسُولَ اللهِ-صلى الله عليه وسلم-قَامَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: ((إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الأَرْضِ)) ثُمَّ ذَكَرَ زَهْرَةَ الدُّنْيَا فَبَدَأَ بِإِحْدَاهُمَا وَثَنَّى بِالأُخْرَى فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَيَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟-أي كيف تُسمَّى بركات الأرض وهي شرٌّ يخاف-النبي صلى الله عليه وسلم-منه علينا؟- فَسَكَتَ عَنْهُ النَّبِيُّ-صلى الله عليه وسلم-قُلْنَا:-يعني الصحابة-يُوحَى إِلَيْهِ وَسَكَتَ النَّاسُ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمِ الطَّيْرَ ثُمَّ إِنَّهُ مَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ الرُّحَضَاءَ فَقَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ آنِفًا؟ أَوَخَيْرٌ هُوَ-ثَلاَثًا-إِنَّ الْخَيْرَ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِالْخَيْرِ-ثم ضرب مثلًا ليقرِّب علاقتنا بالدنيا العلاقة الصحيحة-وَإِنَّهُ كُلُّ مَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ-الربيع: جدول الماء الصغير-مَا يَقْتُلُ حَبَطًا، أَوْ يُلِمُّ-يعني هذا الجدول ينمو حوله زرع، تأتي الماشية تأكل منه، فالذي ينبته الربيع تقتلها الماشية حبطًا: أي يقتلها تُخمة. أو يلمُّ: أي يقترب من أن يقتلها إلَّا آكلة الخضر، الخضر: نوع من أنواع البقول، والخضر ليس من الجيد من البقول، إنَّما قريب أن يكون رديء-كُلَّمَا أَكَلَتْ

(1) [سورة يونس: 7]

حَتَّى إِذَا امْتَلأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسَ فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ ثُمَّ رَتَعَتْ وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ وَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ لِمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ فَجَعَلَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ فَهُوَ كَالآكِلِ الَّذِي لاَ يَشْبَعُ وَيَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[1].

مرَّة أخرى:

الرجل يسأل عن ماذا؟ سمع النبي-صلى الله عليه وسلم-على المنبر يقول: ((إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الأَرْضِ)) وهذا معناه: يُفتح من عند الله من بركات الأرض.

فكان سؤال الرجل: كيف تكون بركات للأرض ثم يخاف النبي-صلى الله عليه وسلم-منها؟

فجاءه الجواب: أولًا في التقرير: إِنَّ الْخَيْرَ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِالْخَيْرِ. ثم أخبر-صلى الله عليه وسلم-أنه كلَّما أنبت الربيع-الجدول الصغير-يُنبت حوله نباتًا. هذا الجدول الصغير يُنبت كلَّما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يُلم.

الحبط: التُّخمة، وهي انتفاخ البطن من كثرة الأكل.

متى يحصل للدابة أن تموت حبطًا؟ عندما تصيب مرعى طيِّب فتأكل كثيرًا حتى تنتفخ فتموت! فإذا وجدت ما أنبت الربيع ماذا تفعل؟ تأكل حتى تموت أو تقترب من أن تموت.

بعد ذلك أتى الاستثناء: " إلا آكلة الخضر" وهذا ضرب من الكلأ ليس من أحسنه.

ماذا تفعل آكلة الخضر؟ ((أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسَ فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ ثُمَّ رَتَعَتْ))، ثلطت وبالت: إشارة إلى أنها قامت بعملية الإخراج، معنى ذلك أنها لم تصل إلى حد التُّخمة، إنَّما أكلت وإذا امتلأت خاصرتها استقبلت الشمس؛ فالشمس تساعدها على عملية الإخراج، تُخرج الوسخ.

"ثُمَّ رَتَعَتْ" أي ثم تعود فتأكل.

ثم أخبر النبي-صلى الله عليه وسلم-((وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ وَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ)) لماذا؟ ماذا يفعل؟ ((لِمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ)) ووضعه في حقه فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقِّه كان كالذي يأكل ولا يشبع!

هذا الحديث فيه مثلين:

1. مثل للمُفْرِط في جمع الدنيا.
2. ومثل للمُقتصد في أخذها.

(1) "صحيح البخاري" (كتاب الجهاد و السِّير، باب فضل النفقة في سبيل الله) ووردت رواية أخرى في (كتاب الرقاق – باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها)

فلمَّا قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((وَإِنَّهُ كُلُّ مَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا، أَوْ يُلِمُّ)) فهذا مَثَل للمُفرِط في أخذ الدنيا، وأن الربيع هذا يُنبت بقولًا مستحسنة، فتأتي الدابة تستكثر منها، ثم تنتفخ بطنها ولا تستطيع أن تحتمل فتنشق أمعاؤها فتموت؛ وهذا مثل الذي يجمع الدنيا من أي باب، فيكون في قلبه الطمع ويقع منه الحسد ويقع منه الكِبْر على من ليس عنده، وتجتمع في نفسه بسبب الدنيا مجموعة أمراض إلى أن ينفجر قلبه فيموت!

آكلة الخضر: هذا مثال للمقتصد، تأخذ الدابة هذا الخضر، -ولما تقرئي في الشروح تجدين أنهم يقولون: أن هذا الخضر من أحرار البقول، ومنهم من يقول: أنه ليس من خيرها-المقصود أن هذا نوع من أنواع البقول. ماذا تفعل الماشية؟ تأكل منه، لكنها لا تصِل إلى حد أن تمتلئ به فمن ثَمّ ستنجو مادامت لم تصل إلى حد أن تنشق أمعاءها، فهي ماذا تفعل؟ تأكل، فإذا امتلأت خاصرتها استقبلت الشمس فثلطت وبالت، يعني إذا شبعت تبرُك مستقبلة الشمس لكي تأتيها الحرارة فتقوم بعملية الإخراج. هذا مثل الإنسان، مُقتصد لا يصل إلى حد أن يملأ يده وقلبه من الدنيا، إنما تأتيه يُنفقها ويصرفها فيما ينبغي ثم يُرزق فيستحسن الرزق ويأخذ منه وينفق وهكذا.

فالمقصود أن الإنسان إذا دخل في قلبه آفة الدنيا حتى لو كان من أهل العلم والفضل، حتى لو كان من أهل الاستقامة سيكون أثر الدنيا عليهم عظيم. فأهل الاستقامة تدخل الدنيا عليهم بحب الترئُّس وحب المكانة، يحب الثناء والمدح، يريد أن يجلس في كل مجلس والناس يشيرون إليه.

وقد قال عبد الرحمن بن مهدي: "كنت أجلس يوم الجمعة في مسجد جامع فيجلس إليَّ الناس، فإذا كانوا كثير فرحت وإذا قلُّوا حزنت، فسألت بشر ابن منصور-صاحب المسند-فقال: هذا مجلس سوء لا تعُد إليه-لأنه يعتني بعدد الناس الموجودين-قال: فما عدت إليه!".

~ فالمقصود أن الدنيا تتزيَّن لكل أحد، فقليل من يشعر برحلة السفر ~

وقد **قيل للشافعي**: مالَك تُدمن إمساك العصا ولست بضعيف؟ فقال: "لأذكر أني مسافر"-يقصد في الدنيا-.

ومن أقواله: "من غَلَبته شِدَّة الشهوة للدنيا لزِمته العبودية لأهلها، ومن رضي بالقنوع زال عنه الخضوع!".

ومعنى ذلك: إذا طمعت في الدنيا يجب أن تلزم عبودية أهلها فيفسد قلبك، ويتعطَّل سَيرك إلى ربك. لكن إذا كان الإنسان قنِع وما يشتدُّ طلبه للشهوات، فهذا يُرجى أن يكون للسلامة أقرب، ويُرجى أن يكون أهل الدنيا عليه أخف، ولا يستولي الشيطان على الإنسان إلَّا إذا عرف شهوته وهواه. ولهذا قبل أن يكتشف الشيطان شهوتك وهواك عليك أن تعرفها أنت، وقبل أن يستغل

الشيطان عثراتك عليك أن تلاحظها أنت، وإذا كانت نفسك تحتال فأنت عليك أن تكون شديد التنبُّه، فلذلك نعود مرة أخرى لتقرير ما ذكرناه أمس:

أن النفس التي لها هوى، الشيطان يفحص هوى النفس ويختبره ثم يركبه ويستمر فيه، فلذلك علينا أن نلاحظ أنفسنا من جهة، وعلينا أن نعرف عداوة الشيطان من جهة.

فلمَّا سمعنا وصف الشيطان أنه وسواس خنَّاس، فهمنا أنه يخنس بمعنى يتستَّر ويختفي، وفهمنا أنه يظهر؛ لأن الخَنس من الظهور والاختفاء، فمتى ذُكر الله خَنس ومتى غُفل عنه عاد.

وعرفنا أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم. معناه: أنَّ له من الدخول على النفس سُبل فملاحظة هذه السُّبل من لوازم نجاة العبد من الهوى.

فمثلًا:

- حين نسمع حديث عن النبي-صلى الله عليه وسلم-أنه قال: ((إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنَامِهِ فَتَوَضَّأَ فَلْيَسْتَنْثِرْ ثَلَاثًا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَبِيتُ عَلَى خَيْشُومِهِ))[1] خيشومه: فتحتي الأنف؛ هذا مكان الشيطان. يأتي عند الخيشوم ويبات.
- وحين تسمعين حديث-النبي صلى الله عليه وسلم-: ((إن اللهَ يحبُّ العُطاسَ ويكرهُ التثاؤبَ، فإذا عطس أحدُكم وحمِدَ اللهَ، كان حقًّا على كلِّ مسلمٍ سمِعه أنْ يقولَ له: يرحمُك اللهُ، وأمَّا التثاؤبُ: فإنَّما هوَ مِن الشيطانِ، فإذا تثاءَب أحدُكم فليرُدَّه ما استطاع، فإنَّ أحدَكم إذا تثاءَب ضَحِك منه الشيطانُ))[2].

هذا كله أدلة على أن الشيطان قريب من ثغراتنا (الأنف، الفم)

- أيضاً كمَّا مرَّ معنا (مجرى الدم): ((إنَّ الشيطانَ يَجري منَ ابنِ آدَمَ مَجرى الدمِ))[3].
- أيضا في الحديث عن النبي-صلى الله عليه وسلم-كما في البخاري: ((كلُّ بني آدمَ يطعنُ الشيطانَ في جنبيهِ بإصبعِه حين يولدُ، غير عيسى ابنِ مريمَ، ذهب يطعن فطُعن في الحجابِ))[4] يعني حتى في حال الولادة، من حال الولادة وهو يؤذينا!

(1) صحيح البخاري-كتاب بدء الخلق-باب صفة إبليس وجنوده-3295

(2) صحيح البخاري-كتاب الأدب-باب إذا تثاءب فليضع يده على فيه-6226

(3) صحيح البخاري-كتاب الأحكام-باب الشهادة تكون عند الحاكم في ولاية القضاء، أو قبل ذلك للخصم-7171

(4) صحيح البخاري-كتاب بدء الخلق-باب صفة إبليس وجنوده-3286

- والناس يدخلون إلى بيوتهم فيتربصهم، وقد ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم كما في صحيح البخاري ومسلم: ((إذا كانَ جُنحُ اللَّيلِ أو أمسَيتُم فكفُّوا صِبيانَكم فإنَّ الشَّياطينَ تنتشِرُ حينئذٍ فإذا ذهبَ ساعةٌ منَ اللَّيلِ فخلُّوهم فأغلقوا الأبوابَ واذكروا اسمَ اللَّهِ فإنَّ الشَّيطانَ لا يفتَحُ بابًا مغلقًا))[1].
- وأيضا الحديث المشهور الذي عند مسلم: ((إذا دخل الرجلُ بيتَه، فذكر اللهَ عند دخولِه وعند طعامِه، قال الشيطانُ: لا مَبيتَ لكم ولا عشاءَ، وإذا دخل فلم يذكر اللهَ عند دخولِه، قال الشيطانُ: أدركتُم المبيتَ .وإذا لم يذكر اللهَ عند طعامِه، قال: أدركتُم المَبيتَ والعَشاءَ))[2].
- وأيضا عند نومه، قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: ((يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة))[3].
- أيضًا في حال النوم يأتي الشيطان فيتلاعب ببني آدم بالرؤى، وأخطر من ذلك أن يأتي الشيطان إلى الصلاة فيأمره بالالتفات، والنبي-صلى الله عليه وسلم-يقول عن الالتفات: ((هو اختلاسٌ، يَخْتَلِسُهُ الشيطانُ من صلاةِ العبدِ))[4].
- أيضًا من أفعال الشيطان إلقاء الهواجس والتفكير الذي يُفسد على العبد عقيدته.
- إلقاء الغضب.
- حتى الإيذاء البدني كما في الحديث عند الترمذي أن حمنة بنت جحش-رضي الله عنها-قالت: "كنت أستحاض حيضة كثيرة شديدة، فأتيت النبي-صلى الله عليه وسلم-أستفتيه وأخبره، فقال: ((إنَّما هذه ركضة من ركضات الشيطان))[5] ركضة: أي ضربة تسبِّب الأذى.

فهذا كله من أفعاله التي علينا أن نشعر منها بعداوته. وهذه العداوة يستخدم فيها ثغراتنا، يستخدم فيها حبنا لنفسنا، يستخدم فيها هوانا، فالأمر جدٌّ خطير، عدوٌّ متربِّص، ونفس مستسلمة، وقلب مريض، **فتصبح النتيجة لابد أن تكون الهلاك!**

(1) صحيح البخاري-كتاب الأشربة-باب تغطية الإناء-5623
(2) صحيح مسلم-كتاب الأشربة-باب آداب الطعام والشراب-2018
(3) صحيح البخاري-كتاب التهجد-باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يُصلِّ بالليل- 1142
(4) صحيح البخاري-كتاب الأذان-باب الالتفات في الصلاة-751
(5) السنن الكبرى للبيهقي، صحيح

المفروض نشرع في مناقشة حال الشيطان وشروره وكيف أن كل معصية وبلاء إنَّما هي من الشيطان. نفعل هذا الفعل من أجل أن نعبد الله بعبادة الاستعاذة، فأنت الآن تأكل يسرق من طعامك، تشرب يشرب من شرابك، تُعاشِر (يعاشر الرجل زوجته) يأخذ حظَّه من الإيذاء، يبيت في بيت الرجل، يأكل طعام الإنس بغير إذنهم، يطلَّع على عوراتهم، يأمرهم بالمعصية، إلى أن تسمع كلامًا عجيبًا سأنقله لكم من كلام ابن القيم في وصف الشيطان على الإنسان، في كتاب بدائع الفوائد:

"فيأمر العبد بالمعصية ثم يلقي في قلوب الناس يقظةً ومنامًا إنه فعل كذا وكذا، ومن هذا أن العبد يفعل الذنب لا يطَّلع عليه أحد من الناس فيصبح والناس يتحدَّثون به وما ذاك إلَّا أن الشيطان زيَّنه له وألقاه في قلبه ثم وسوس إلى الناس بما فعل وألقاه إليهم، فأوقعه في الذنب ثم فضحه به، فالرب تعالى يستره والشيطان يجهد في كشف ستره وفضيحته، فيغتر العبد ويقول: هذا ذنب لم يره إلَّا الله تعالى ولم يشعر بأن عدوُّه ساع في إذاعته وفضيحته وقلَّ مَن يتفطَّن من الناس لهذه الدقيقة!".

يعني أن العبد يفعل معصية ثم الشيطان يُلقي في قلوب الناس أن هذا العبد فعل المعصية.

خطر عظيم! عدو خطير! عدم تنبُّهنا له يجعله يصطادنا في كل طريق ونهلك بسببه، فمن المعلوم ما من طريق من طرق الخير إلَّا والشيطان يترصَّدنا فيه، أيُّ طريق من طرق الخير يعيقه علينا ويشوِّشنا بالمعارضات والقواطع.

إذا اكتفينا شرَّ المعارضات والقواطع الخارجية تجد نفسك فجأة من داخلك لديك عوارض وقواطع!، وهذا طبعًا تحقيقه للقسم أنه يأتي لبني آدم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

موقفه من الأنبياء:

- ويكفينا أن نفكِّر في الحيلة التي احتالها على **آدم**-عليه السلام-وأخرجه من الجنة!
- تصدَّى **لإبراهيم**-عليه السلام-حتى رماه إبراهيم-عليه السلام-.
- تصدَّى **لعيسى**-عليه السلام-حتى أراد اليهود أن يقتلوه.
- تصدَّى **لزكريا ويحيى**-صلى الله عليهم وسلم جميعًا حتى قُتلا.
- تصدَّى للنبي **محمد**-صلى الله عليه وسلم-وظاهر الكفَّار على قتله.

هذا كلُّه من الأدلَّة الظاهرة على الخطر المحيط بنا.

له طرق في إيقاع الشر:

- {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ}[1].
- {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ}[2].
- {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا}[3].

على كل حال، المقصود أن ملاحظة عداوته طريق لِصدِّ شرِّه عنَّا، ولكي نمنعه من نفوسنا فلا يركبها ويُثير على نفوسنا الهوى، ولكيلا يكون الشيطان هو محرِّك الأمراض التي في القلوب، فإن **الحسد** من آثار الشيطان، **والكبر** من نفخه، و**العجب** من طريقه وسيره. فما من مرض في القلب إلَّا وهو في الشيطان، وطريق المرض هو ركوب الشيطان النفس الأمارة بالسوء حتى تسيطر على القلب. فتجد القلب مريض بعدَّة أمراض وكلها خطط شيطانية.

~ هذه المعرفة تساعدنا على القيام بعبادة الاستعاذة ~

على كل حال، إذا تيسَّر لنا إن شاء الله يوم السبت نبدأ بالكلام حول أبواب الشيطان إلى القلب، وهي كثيرة، أذكر أطرافها الآن ثم في اجتماعنا القادم أتحدَّث عنها:

أبواب الشيطان إلى القلب:

- **الحرص والحسد.**
- **حسن الظن بالنفس.**
- **سوء الظن بالمسلمين.**
- **الشبع.**
- **البخل.**
- **الطمع في الناس.**
- **الطمع في الأموال.**
- **التعصُّب بأنواعه.**

(1) [سورة البقرة: 268]
(2) [سورة البقرة: 257]
(3) [سورة النساء: 120]

نسأل الله-عزَّ وجلَّ-بمنِّه وكرمه أن ينشر على بلاد المسلمين الأمن والأمان، ونسأله-سبحانه وتعالى-أن يردَّ ضالهم، ويشرح صدور المسلمين للحق.

تم بحمد الله

الفهرس

اللقاء الأول 1
اللقاء الثاني 14
اللقاء الثالث 25
اللقاء الرابع 37